اقرأ

علي الجارم

سيدة القصور

آخر أيام الفاطميين بمصر

دار المعارف بمصر

٥

سيدة القصور

آخر أيام الفاطميين بمصر

علي الجارم

سيدة القصور

آخر أيام الفاطميين بمصر

تبسّم دهرها حيناً ولمّا ... تقلّب خان « سيّدة القصور »
تبدّد مجدها كالطيف لكن ... أراه مجسّماً بين السطور

بدر الدين علي الجارم

اقرأ ١٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٩ – الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

١

كان النهار فى صولة شبابه . وكانت الشمس تبعث بأشعتها وهّاجة ملتهبة تكاد تشوى الوجوه ، وكان الجو على حرارته كثير الرطوبة والندى المتصاعد من البحر ، وكأنّ النسيم الذى أكثر الشعراء من ادعاء أنه عليل ، قد طالت علته فقضى نحبه ، فلا تسمع له جرّة ذيل ولا همسة أنين .

وقد أضنى الناس بمدينة عَدَن هذا الوَمَدُ ، وهزل أجسامهم القيظ بعد أن توالت عليهم شهور الصيف شديدة لوّاحة ، كأنما كانت تتنافس فى مسّهم بشُواظها ، فلا يجىء شهر إلا وهو أشد وأنكى من صاحبه .

وظن أهل المدينة أن العُرْى يخفف عنهم بعض ويلات الحر ، فتسلّبوا من الملابس إلا أُزُراً قصيرة يشدونها إلى أوساطهم ولو علموا لصانوا أجسامهم من هذا السعير اللافح ، الذى كساهم ثوباً لماعاً من العرق ، كلما تساقط نسجت لهم الشمس به ثوباً جديداً ، وكلما مسحوه بأيديهم سال نبعه وتقاطر ، حتى كأن

كل رجل أضبح إنبيقاً يتحول كل ما فيه ماء بالتصعيد والتقطير

خلت طرق المدينة من السّابلة إلاّ من دعته شدة الحاجة إلى المسير . وفزِع المتعطلون إلى الظل والنّجائر يتقون بها شدّة الهاجرة ، أما الأغنياء والموسرون : فلبسوا البيوت وزرّروا الأبواب ، والتجأوا إلى سراديب عميقة فى الأرض ، ينفُذ إليها الهواء من بناء اسطوانىّ كالداخنة ، يشق طبقات الدار ، وتنفذ فوّهته إلى سطحها . وكان علىّ بن مهدىّ — وهو من دعاة الفاطميين وكبار رجالهم — فى داره فى هذا اليوم ، ومعه جماعة من الأدباء والعلماء ، بينهم أبو كاظم الحرّانىّ ، والفقيه أبو الحسن النّيلىّ ، وأسامة الحضرمىّ . وكانت الدار على سِيف البحر ، فخمة شاهقة البناء ، تدل على عظمة صاحبها واتّساع جاهه ، وقد أسرع العبيد فبلّوا دهاليز السرداب بالماء ، حتى بدت فيها بحيرات صغيرة هنا وهناك .

وجلس ابن مهدىّ وأضيافه فى حجرة كان أثاثها غاية فى الحسن وجمال التنسيق ، وقد كسيت فيها الأرائك بالحرير الصّنعانىّ ، واختيرت الستور من الخز التِنّيسىّ ، وفرشت الأرض بالبسط الهنديّة ، ودلّ كل شىء فيها على ذوق سليم وبذَخ

وإسراف ، وقد وقف فى نهاية الحجرة أربعة عبيد ، يُمسكون بحبال مِروحة مستطيلة ، عملت من القطيفة الغليظة النسيج ، وعُلّقت بسقف الحجرة على طول امتداده . فهم لا يفتأون يجذبون الحبال ويُرخونها ، والمِروحة تتحرك إلى الأمام والخلف ، أملاً فى أن تجود على من بالحجرة بنفَس من نسيم .

بدأ ابن مهدى فقال : هذا يوم لم ترَ عدن له مثيلا ، وستصبح سنة تسع وأربعين وخمسمائة ذكرى خالدة لأهلها يوقّتون بها ويؤرخون .

فقال الحرّانىّ — وكان فكِها — : سيقولون زار الحرّانى عدن سنة الحرّ . فعاجله النّيلىّ ، وقال : وسيقولون سُرق خُرج النّيلىّ سنة الحر . فضحك القوم ، والتفت إليه ابن مهدىّ وقال : أسرق منك خرج حقّا ؟ ؟

— لا أدرى . . . أسرق ؟ ! . . . أم أبتلعته الأرض؟!... أم تخطّفته السماء ؟!... وصلت القافلة من زَبيد عند باب المدينة الذى يسمونه هنا (باب الصّدقات) ، أو هو باب السرقات على الأرجح ، وحُطّ رحلى ووضع ما عليه من متاع وأثقال ، وأنا أنظر إليه لا تكاد عينى تذهب عنه . وكان الخرج بين المتاع ، وقد ازدحم حول السفّار جماعات من الحمّالين

والمجتدين وبينهم امرأة هزيلة شاحبة فى أسمال — أو فيما كانت أسمالا — لا تكاد تستر جسمها . وكان وجهها يحكى وهو صامت ، حكاية مؤلمة للسّغب والفاقة ومرارة الحاجة ، وقد حملت بين يديها طفلا أو جُعَلاً ، تركه الجوع عظاماً فى جلد ، أو جلداً على عظام . وأخذت تمد ذراعيها به فى وجهى ، فراعنى سوء حالهما ، وبحثت فى جيبى عن درهم أمسك به رمقهما . وما كدت أمدّ يدى به إليهما وأعود بعينى إلى أمتعتى ، حتى وجدت مكان الخرج خالياً ! !

فقال الحرّانىّ : هذه هى اللعبة يا سيدى التى لم تدرسها فى الكتب ، ولم تجد لها مثيلا فى كتاب الحيل الفقهية للخصّاف .

وكأنما كان أبو نواس اللّئيم يشير إليك بسبابته حين يقول :

فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

هذه المرأة يامولانا تعمل مع اللصوص والشُّطّار . وهى آلتهم التى بها يصلون إلى غاياتهم . هى الطعم الذى يقذفون به إلى السّمك لاصطياده ، هى الحبّ الذى ينثر حول الفخّ ليقع عليه الطائر الغرّ ، هى البؤس المزوّق الذى جاء يستلب مالك اضطراراً لما عجز البؤس المحقّق عن أخذه منك اختياراً . هذه المرأة وأمثالها

يرسلها العيّارون إلى من ينكب بهم ، ليثير منظرها المؤلم نفسه ، فيصرفه عن النظر إلى ما حوله ، وقد يكون مقدار ذهوله لحظة أو دونها ، وهذه اللّحيظة كافية لأن يسلبوه ما يشاءون .

فقال النيلىّ — وقد ظهرت فى وجهه آلام من يشعر بالتّفريط ، أو من يتوقع أنه سيوصم بالغفلة والبلاهة — حقًّا إنهم شياطين ! !

وهنا سأله ابن مهدىّ فى شىء من الاستنكار : ألم تذهب إلى والى المدينة وتقصّ عليه قصتك ؟ ! فلعله يجد سبيلا إلى الوصول إلى ما سرق منك ! !

— ذهبت إلى داره ، وهى تقع فى محلة الحدّادين إلى الجانب الشرقىّ من المدينة ، فوصلت إليها بعد لأى وجهد ، فلما طرقت الباب خرج لى أحد غلمانه ، فلما سألته عنه ، قال : إنه مريض منذ يومين ، أكل لحم جزور زَهِمة فأصيب بالزُّحار.

فسألته عن وكيله ، وأين مكانه ؟ فقال : إنه أعرس بالأمس ، وإنه نازل عند أصهاره « بذى جِبْلَة » وإن المسافة بين عدن وبينها سبعة عشر فرسخا . فحوقلت ورجّعت ، وقلت ضاع خرجك يا أبا الحسن بين معاناة الزُّحار ومناغاة الأبكار ! !

فضحك القوم ، وأغرقوا فى الضحك ، ثم قال ابن مهدىّ

فى مواربة ودهاء : خلّ عن المزاح الآن أبا الحسن . . . كيف حال الدعوة الفاطمية بزبيد ؟ ؟ . . . لقد جاءت رسالة من الخليفة الفائز إلى محمد بن سبأ ، ينعَى عليه فيها التّهاون فى نشر الدعوة ، ويستحثه على أخذ كل من نكل عنها بالبطش وقوة السلطان .

فأجاب الحرّانىّ : إن الدعوة الفاطمية بزبيد على خير ما يُتمنى لها من القوة والانتشار ، فإن الملك فاتكاً لا يفتأ ناشراً لها ، عاملا على بثّها فى كل نفس . ونائبَ داعى الدعاة هناك ونقباءه ونوّابه ، لا يتركون سنّياً حتى يضموه إلى حظيرتهم ، فقال ابن مهدىّ : ذاك كلام أبا كاظم ، فإن ما لدينا من الأخبار يَجْبَه ما تقول . ولعل حبّك لفاتك هو الذى دفعك إلى الذود عنه !

فأسرع الحرّانىّ قائلاً : لقد صدقتك يا سيدى . وإذا كان لابد من الحق الصّريح الذى لا يخالطه استثناء ، فإننى أؤكد لك واثقاً أن زبيد كلها فاطمية ، إلا أسرة زيدان ، وأسرة المثيب ، وهما أعمام عُمارة بن زيدان وأخواله .

فانبرى له الحضرمى — وكان صديق عمارة الوفىّ — قائلا : ما لك أبا كاظم وعُمارة ؟ ! إنك فى النيل منه والكيد له جدُّ

منهم . . . وإن كنت لا أعرف أسباب نقمتك منه وحقدك عليه ؟ !

وهنا صاح ابن مهدىّ — وقد رأى الشر يتصاعد شرره :

— مه أيها الإخوان . . . فإننا اجتمعنا للمحادثة والمحاضرة ، لا للتنابذ والمهاترة . . . أعلمتم أن عمارة بن زيدان ، قدم منذ أيام وافداً على محمد بن سبأ صاحب عدن ؟ أتعرفون سبب هذه الوفادة ؟ فأسرع الحرّانىّ قائلا : إنه قنّاص سديد الرماية ، فلعله اشتم هنا رائحة صيد جديد . ثم قال النيلى : إن عُمارة اليوم يا سيدى غيره بالأمس ، فقد كنا نعرفه بالمدرسة العصامية بزبيد فقيراً مملقاً ، يعيش عيشة طلاّب العلم فى عسر وشقاء . ولكنه بعد أن اتصل بأمير زبيد ومدحه ، أغدق عليه ، فأصبح صاحب الحول والطول ، وصار موضع الشّفاعات وقاضى الحاجات . ثم إنه تاجرَ فراجت تجارته ، وسارت سفنه بين زبيد وعدن وجُدة ، لا تكاد تنقطع فى ليل أو نهار . حتى لقد قال له يوماً أبو عبد الله الحفائلى — وهو رأس العلم والأدب بزبيد — : تِـهْ علينا أبا محمد ، فقد أصبحت ولا مثل لك فى الجاه والعلم والثراء ! وليته بعد أن أسبغ الله عليه هذه النعمة الطارئة ،

شكر الله عليها بقليل من التواضع ، أو أدّى زكاتها بشيء من اللطف والمجاملة ! ولكنه صلف متكبر مغرور — وإن كره الحضرمى . فأسرع الحضرمى وقال : كفى كفى أبا الحسن . لقد أكلتم لحم أخيكم ميْتاً . ومزقتم من الرجل وهو غائب ما تخرَس دونه ألسنتكم وهو حاضر . إن عُمارة لم يكن دعِيًّا فى جاهه . ولم يكن محدَثاً فى نعمته : إنّ عمّه على بن زيدان أكرم من نثر مالاً ، وأشجع من جرّد سيفاً . وخاله محمد بن المثيب أشرف قومه ، وسيد قبيلته . ولولا الجدب المحرق الذى أصاب « مرْطان » سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، فأهلك الحرث والنسل — ما احتاج عمارة إلى السعى فى الرزق ، والتنقل فى طلب المال ، وما سمعنا مثل أبى الحسن النيلىّ يلمزه اليوم بأن نعمته طارئة وثروته محدَثة.

فقال ابن مهدىّ : إن عمارة رجل يجمع كلّ صفات الرجولة ، وقد حادثته بالأمس فى دار ابن سبأ ، فرأيت فيه علماً وأدباً ودهاء. والذى قرأته فى وجهه ، واستنبطته من خلال حديثه : أنه رجل عظيم الآمال ، كبير النفس ، طموح بعيد المدى . وهو يذكرنى بالمتنبى شاعر كافور ، وأرجو ألا تكون له مثل خاتمته .

ثم مُدّت مائدة الطعام ، وقام الغلمان بالخدمة ، وقدمت

الألوان الشهية ، وأنواع التوابل الهندية . فأكل القوم وشربوا ، وهم يتنادرون ويتسامرون . ثم استراح الضيوف بعد الأكل قليلا ، حتى إذا قاربت الشمس المغيب ، ودّعوا ربّ المثوى وانصرفوا .

٢

خرج الحرانىّ والنيلىّ والحقد يأكل قلبيهما ، لما سمعاه من إطراء ابن مهدىّ صفات عمارة . وهما يعلمان ما لابن مهدىّ من عظيم التأثير والكلمة المسموعة عند محمد بن سبأ ، وأنه إذا ظفر عمارة بمودتهما ، بعد أن فاز عند أمير زبيد بعظيم المكانة لم يأمنا شرّه .

وأسفا على أن طعناه ونالا منه أمام صديقه الحضرمى ، الذى سينقل إليه صورة ما دار بالمجلس كاملة وافية ، إن لم يزد عليها كثيراً من ألوان التحسين والترويق .

بدأ الحرّانىّ الحديث قائلا : ما العمل أبا الحسن ؟! فقد زلق لسانى وتجاوزت حدّ الحزم فى ثلب عمارة ، وتمزيق عرضه؟؟

إن عمارة اللئيم الداهية ، استطاع أن يحافظ على مذهبه السنّىّ ، وأن يجتذب هؤلاء الفاطميّين من ناحية ، ورؤساء زبيد

من ناحية أخرى . حقاً إن أمر هذا الرجل لعجيب ! إن له فى التأثير فى الكبراء ما يشبه السحر ، حتى كأنه بقوة روحه أنسى دعاة الفاطميّة التشدد فى إلزامه مذهبهم . وكأنهم يرونه خلقاً عظيما فوق المذاهب والعقائد ؟

إنه يمدح الفاطميين ، ويمدح السّنيّين بشعره ، ولو رأى مجوسياً لمدحه . وإذا خاطبه الناس فى هذا ولاموه قال : إن تجارة السلع علمته التجارة فى الشعر ، وإنه ينسج من قصائده أثواباً مختلفة الأثمان ، متنوعة الطول والقصر ، يبيعها لكل من تقدم لشرائها . وإنه لم ير فى حياته بزّازاً امتنع عن أن يبيع لوثنىّ أو رافضىّ . ويظهر أنه بهذه الطريقة نجا بمذهبه السنىّ .

ـــ هو فى الحق شديد الحرص عليه ، وهو فى الحق يمتاز علينا فى هذا ، فإننا أظهرنا التمسك بالمذهب الفاطمىّ عند أول تهديد من داعى الدّعاة .

ـــ هوّن عليك أبا الحسن ، فإن قليلاً من الرياء فى هذه الدنيا ليس بالأمر الجلل . وهو سلاح خلقه الله فينا نتقى به الخطر ، كما خلق الدّرقة فى السُّلَحفْاة ، والقدرة على التلون فى الحرباء . ولو أن سائلاً سألنى عن منفعة اللغة ، لأجبته بأن

أعظم فوائدها : أنها لا تعبر عمَّا فى الضمير ! ! وهؤلاء السادة الذين تراهم ، وهؤلاء العلماء ، وهؤلاء الأثرياء ، لن يستطيعوا العيش بلا رياء .

إنّ الأطفال فى هذا الزمان يراءون ! ولست أدرى أكان أكثم بن صيفىّ يدعو إلى الصدق ، أم كان يدعو إلى الكذب حين قال : إن قول الحقّ لم يدع لى صديقاً .

ــ صدقت ! ! لو أن كل إنسان قال ما يجول بنفسه بشأن من يعرف من الناس ومن لايعرف ــ لفتك به الناس ... تخيّل أبا كاظم أننى وثبت اليوم على ابن مهدىّ مضيفنا ، وأخذت بتلابيبه وصحت : إنك ثقيل وربِّ الكعبة ! ! إن كبرك لا يحتمل ! ! إن تعاقلك وزهوك وتكلمك من أطراف أنفك فوق طاقتى ! ! اعزُب عن وجهى إنك سمج دنىء ! !

تخيّل أنى فعلت هذا ، ثم تخيّل ماذا يكون .

وهذا الشيخ الذى تراه الآن راكباً بغلته ، وخلفه عشرة عبيد يلهثون من التّعب ، وهو ينظر فى الناس يميناً وشمالاً فى بلاهة وعجب كأنه يريد أن يصيح فيهم : « انظرونى أيها العُميان ،

وانظروا ما أنا فيه من جاه وثروة » — ألا تحب أن تعدو خلفه وتبصق فى وجهه ، وتعرّفه أنه مأفون مُتبجح نذل ؟ !

— إن أمثال هذا كثير ، فدعنا الآن نفكر فيما ينجينا من عمارة وويلاته .

— علمنا اليوم من ابن مهدىّ الأبله : أن عمارة اجتمع به فى دار ابن سبأ ، وفهمنا من حديث ابن مهدىّ الغِرّ : أنه جاء إليهما ليتحدّثا معه فى أمر جسيم . ألم يقل ابن مهدىّ : « إن عمارة رجل عظيم الآمال ، كبير النفس ، طموح بعيد المدى » ؟؟

— هذا صحيح . فماذا ترى كان موضوع الحديث ؟ ؟

— إنه فيما يغلب على ظنى لم يكن حديثاً للمسامرة والتسلية ، بل كان مفاوضة ذات شأن .

— فى أى شأن كانت المفاوضة يا أبا الحسن ؟

— لا أدرى . ولكن ألا تعرف « مُفلحاً » خادم ابن سبأ الخاص به ، والأثير عنده ؟

— أعرفه . . . وهو صديق لى حميم . . . وهو سنّىّ فى الباطن ، وكثيراً ما كان يرد إلى زبيد ليسألنى عن مسائل فى فقه الشافعى ، و « مفلح » هذا إذا عرف شيئاً من المفاوضة ، ومما دار

بين هؤلاء الثلاثة من الحديث — فلن يتوانى عن إخبارى به .

— هلم بنا إليه بحقّك .

فيأخذ الحرّانىّ بيد صاحبه ، ويخرجان من درب قذر ، إلى زقاق كريه الرائحة ، حتى يصلا إلى غربىّ المدينة . فيظهر لهما بناء شامخ كأنه الحصن ، وحوله الحدائق المزهرة ، والرياض الباسمة ، فيشير الحرّانىّ إليه ويقول : هذا هو القصر المسمّى بالمنظر ، وهو قصر ابن سبأ صاحب عدن والقائم بدعوة الفاطميين فيها . وخير لنا أن نذهب إلى الباب الخلفى ، خوفاً من أن نلتقى بالأمير .

دخل الشيخان من الباب الخلفىّ ، فقابلهما غلامٌ لمفلح ، لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وسيم الوجه ، صبيح الطلعة ، امتزج فيه الدم العربى بالهندىّ ، فأخرج هذا الامتزاج للناس صورة من الإنسانية بديعة رائعة . فسأل الحرّانىّ عن صديقه « مفلح » فأجلسهما الغلام فى حجرة وذهب لدعاء سيّده ، وأقبل « مفلح » وكان رجلا فى الأربعين ، وقور السمت ، جميل الوجه ، يلبَس من الحرير والديباج ما لا يجد طريقه إلاّ حول أعطاف الملوك . فحيا الحرّانىّ وصاحبه فى تجلّة وإكرام ، وانتقل الحديث إلى جوّ

عدن وشدّة حرارته ، وما سيصيب الناس فى هذه السنة من الجدب ، لامتناع المطر وقسوة الجفاف .

وبعد قليل قال له الحرانىّ : أيتفضل سيدى بأن أستفسر منه فى خلوة عن أمر أراه خطيراً ؟ !

— نعم نعم وكرامة .

ثم يأخذ مفلح بيده إلى حجرة أخرى ، ويغلق بابها ويقول : ماذا تريد أبا كاظم ؟ ؟ إنى لا أنسى لك فضلك فى شرح كثير ممّا التبس علىّ فهمه من مذهب الشافعىّ ، ولم أجد من فقهاء زبيد من هو أكتم للسر ، وأرعى للأمانة منك . فلو عرف ابن سبأ حقيقة مذهبى ، ما أبقى رأسى بين كتفىّ .

— يا سيدى . لقد وضعت سرك عند شقيق روحك ، ونجىّ نفسك . وكأنك والله ما نقلته إلاّ من ناحية صدرك اليسرى إلى ناحيته اليمنى . . . إننا لا نزال يا سيّدى نأمل لك عزّا كبيراً ، ولا نزال نرجو أن تتقوى السنّية وتظهر ، لنراك زعيمها المرجّى ، والملك الحاكم المسيطر فى هذه البلاد .

— تلك آمال أبا كاظم .

— آمال وستحقّق إن شاء ... أجاء عمارة بن زيدان

لمقابلة ابن سبأ هنا بالأمس ؟ ؟

— نعم . وقد كان معه عليّ بن مهديّ ، فقضوا وقتاً طويلاً في حديث طويل .

— أتعتقد أنهم كانوا فى مفاوضة بشأن أحوال الحكم فى اليمن ؟ ؟

فابتسم « مفلح » وهزّ بلطف كتف الحرّانيّ وقال :

— إنّ عمارة شابّ طمّاح ، يريد أن يكون زبيباً قبل أن يكون حِصْرِماً .

— أسمعت بعض ما قالوا يا سيدى ؟

فأطرق « مفلح » مليـّاً ، ثم رفع رأسه وقال متردداً : الذى فهمته من كلمة تتناثر هنا ، وأخرى تسقط هناك ، وثالثة يرتفع بها الصوت قليلا : أنهم كانوا يتحدثون فى شأن زبيد .

— ماذا سمعت بالله يا مولاى ؟ فإن حياتنا وآمالنا معلقة بما ينقض هؤلاء ويبرمون .

— سمعت مايفهم منه : أن فاتكاً ملك زبيد عدو للفاطمية ، وأنه يجتهد فى إماتة دعوتهم ، وأن ابن سبأ قد يجهّز عسكراً بقيادة عليّ بن مهديّ ، لمحاربته والاستيلاء على المدينة ، على أن

يسبقه عمارة إليها للتمهيد لهذا الغزو ، واجتذاب القبائل إلى ابن مهدىّ ، وأن يُقلَّد ابن مهدىّ حكم زبيد بعد زوال فاتك ، وأن يكون عمارة شريكه ونائبه فى الحكم . ثم رأيتهم يتعاهدون على الكتمان ، حتى تأخذ أهلَ زبيد الصّيحة وهم نائمون .

ـــ ياللدّاهية ! ! ضعنا بين جنون ابن مهدىّ ، ودهاء عمارة !

ـــ كل شىء بقضاء وقدر يا شيخ ، ولعلهم كانوا يتحدثون ، واللوح المحفوظ يسخَر ويقهقه ! !

ـــ نحن لم نر اللوح المحفوظ يا سيدى ، ولكننا نرى بين الرماد وميض نار ، سيكون له تأجّج وضرام . وليس لنا فى رفع هذا المكروه عنا إلاّ الله وأنت .

ثم استأذن الشيخان فى الانصراف وخرجا . فقال النيلىّ :

ـــ أراك عابساً جازعاً أبا كاظم . فماذا قال لك ؟ ؟

ـــ ماذا قال لى ؟ ! إنى لم أسمع كلاماً ، إنما سمعت رعداً وعزيفاً وصواعق . . . إنها مصيبة جارفة . . هلم إلى فُندقنا ، فإننا لا نستطيع الكلام فى الطريق .

وصلا إلى الفندق واجمين ، ودخلا حجرتهما وأغلقا بابها ،

وحدّث الحرّانيّ النيليّ بما سمعه من مفلح ، فاكفهرّ وجهه وقال :

ــ ضعنا وضاعت زبيد .

ــ الرأى عندى : أن أذهب الليلة مستخفياً إلى زبيد ، حتى إذا نزلتها ، أخذت سمتى قُدُماً إلى قصر فاتك ، وطلبت مقابلته وحده . حتى إذا نفضت إليه جملة الخبر ، عدت من ليلتى غير متوان ولا معوّق . . . سأرحل الآن .

ثم قام وذهب إلى سوق البزّازين ، فاشترى إزارا ورداء ، حتى إذا لبسهما لم يكن يميَّز من أعراب البادية . وودّع النيليّ وذهب إلى محطّ القوافل ليستأجر جملاً إلى زبيد .

٣

امتطى الحرّانى جملاً شديد الأسر ، موثّق الخلق ، مارس الصحراء ومارسته ، وتحدته بوعورتها وبعد شُقّتها ، فتحداها بصبره وشدة جلده ، حتى لقد أصبح الضرب فى الفيافى جزءاً من حياته ، لا يكاد يجد له ألماً أو يشكو منه عنتاً ! سار الحرّانيّ وقد لفه الظلام برداء حالك السواد ، طرز بثواقب النجوم ، سار فى صحراء لا يسمع بها إلا عواء ذئب برّح به

السّغب وشفّه الظمأ ، ولا يرى فيها إلا تهاويل من الخيال ، دميمة الوجوه ، فاغرة الأفواه ، تتراقص أمامه كأنها تستهويه إلى موت محقق . وكان الحرّانىّ متجهم الوجه ، منقبض الصدر، مضطرب الفكر ، يخشى أن يكون بغض أسرة زيدان قد جاوز به حد الحزم، ودفع به إلى ما يخل بالحذر الحريص ، وكلما صوّر الحوادث التى زلقت بها رجله، وزجّه فيها حقده، رأى أنها لم تكن من الإحكام ودقة التدبير ، بحيث يرضى عنها دهاؤه ، أو يستسيغها ذوقه الفنىّ فى نصب الأشراك وابتداع الجرائم . وقد كان فى متناول ذكائه من ضروب الحيلة وأساليب المكر ، ما كان أدقّ صنعاً ، وأبعد عن العقول إدراكاً ، وأخفى على الباحث المنقب . ماذا فعل ؟ وماذا قدّر؟ وماذا دبّر ؟ مكيدة مكشوفة مهتوكة الستر ، كأنها عبث أطفال . لقد نال من عمارة ، وانتقصه أمام الحضرمى ، وهو له أصدق صديق وأوفى خليل . فإذا أصاب آل زيدان من فاتك أذًى أو ضرر ، كان من الهين السهل أن تتجه العيون إلى الحرّانىّ ، وأن تشير إليه بالأكف الأصابع . ثم ماذا فعل بعد هذا ؟ ذهب مع النّيلىّ إلى « مفلح » . ومن هذا المفلح !؟ بائس تركه مبضع الجرائحىّ

وَسَطاً حائراً بين الرجال والنساء ، فلا شهامة الرجل نال، ولا بدهاء المرأة ظَفِر . ثم إن الذى يفرّط فى سر سيده — وهو سرُّ دولة — أجدر بأن يهب ما فى صدره مسئولاً أو غير مسئول ، وأن يبعثر ما فى نفسه فى الأسواق . على أن هذا الغِرّ الأحمق مفتون بشيء أسمه السّنية ، عدوّ خفيّ للفاطمية .

وبنو زيدان أقوى قبائل اليمن ، وأشدها تمسكاً بالمذهب السّنيّ ، فليس فى مجال الوهم ببعيد ، أن يبعث إليهم هذا الجاهل رسولا ، يخبرهم بما كان من زيارتى وزيارة النّيلىّ لداره ، ثم إن ما بينى وبين على بن زيدان من الثأر القديم ، كفيل بأن يحمله على الاعتقاد بأن لى فى هذه المكيدة يداً ، وأنى كنت أول ساع بعمارة عند فاتك ، وأول مؤلّب عليه . حقّاً إنها دسيسة لم تُحكم أطرافها ، ولم تستر فخاخها . ولكن ماذا أعمل الآن ، وقد انطلق السهم الطائش ! ؟

ألا سُحقاً لعلى بن زيدان ، لقد كان ما أوقعه بأبى منذ سنين من شديد العقاب والخزى الدائم ، سبباً لهذا الحقد الذى يملأ صدرى على أسرة زيدان وكل من يتصل بها . وماذا كان فعل أبى فى شبابه ؟ أحب فتاة من حيّهم وأحبته ، فأبوْا أن

يزوجوه إيّاها كبراً وصلفاً ، لأنهم يرون الناس جميعاً دونهم، ولأنهم لا يصاهرون إلا من كان من قبيلتهم ، كأنهم يخشون على هذه السلالة الطاهرة أن تدنس بغير نسبهم . وكان يجدر بأبى — سامحه الله — أن يقابل كبرهم بمثله، وأن يُخضع تلك النزوة الطائشة التى يسمونها الحبّ لسلطان الكرامة والاعتزاز بقومه وقبيلته . ولكنه لم يفعل ، واختطف الفتاة من خبائها فى ليلة سوداء ، فأحس به القوم فأدركوهما ، وقتلوا الفتاة وهمّوا بقتل أبى ، ولكن شريراً لئيماً منهم أشار بأن يستبقوه لحياة هى شر من الموت ، أشار بأن يبقى حياً . وأن يوصم وصمة اللصوص . فاستطابوا الرأى ، وأوقدوا النار ، ووسموه فوق جبهته وفوق خديه بعلامات يوسم بها السُّرّاق وقُطّاع الطريق ، ثم تركوه بالصحراء يئن من الألم ، ويئن من الخزى والعار . ووالله ما جلست بعد هذا اليوم مجلساً ، ولا سرت فى طريق إلاّ وكأنى أرى جميع الأصابع تشير إلىّ : هذا ابن السارق الموصوم ! لا . . لا . . لا بد من الانتقام من آل زيدان ، كيفما كانت قوتهم ، وكيفما كان عديدهم ، وسأتخذ من ضعفى قوة للكيد لهم والوثوب عليهم . إن البعوضة لا تنال باليد ،

ولكنها تطنُّ وتلسع ، فإذا حاول مَن لسعته قتلها لطم خديه . وهذا عمارة صيد سهل ، سريع الوقوع فى الشرك ، فإن ما جبل عليه من الصراحة والطموح والتهور فى طلب ما يريد ، كفيل بأن يوقعه فى أهون الدسائس حبكا .

كان الحرّانى يناجى نفسه وهو حزين مطرق ، تتناهبه الأفكار ويؤلمه طائف الذكريات ، ويقبضه الخوف من الإقدام فيبسُطه الحقد وشهوة الانتقام . وهو بين هذا وذلك يتسمّع أحياناً لصوت ضئيل خافت يهتف به ضميره أو ما بقى له من ضمير ، فيقول : ما هذا الذى أنت فيه أبا كاظم ؟ ! وما هذه العربدة التى ستعود عليك نكالا ووبالاً ؟ ! أنت تقف أمام أسرة زيدان ! وأنت تكيد لها ! وأنت تنصب لها الحبائل ! لقد جاوزت طورك ، وقذفت بنفسك بين براثن الأسود ! وألقيت بيدك إلى التهلكة ! إن عبداً من عبيد آل زيدان وحده عسىّ بأن يقضى عليك وعلى أولادك وأهلك ، من غير أن يترك لفَعلته أثراً . إن أباك مات منذ حين ، ودفن معه عاره ، ونسى الناس تلك العلامات البشعة الدميمة التى كانت تشوِّه وجهه ، وطُوى ذلك السجل المشئوم ، سجل الذل والخزى والشنار .

مالك تنبش الماضى ؟ وكلما نبشته ملأتْ جيفته الجوّ خبثاً .
أنت تعادى آل زيدان !

هذا إذا عادت النمال الجبال، وصاولت الكلاب السحاب !

عد إلى صوابك أبا كاظم ، ثم عد من حيث أتيت ، واغسل تلك السخائم التى سوّدت صدرك بماء من التسامح والغفران ، واقتل تلك الحيات التى أكلت قلبك وأقضّت مضجعك بسلاح من الصفح الجميل ، فإن الحاقد ينال من نفسه فوق ما ينال من عدوه . وهو أشبه بالنحلة تلسع وتموت ، والسّهم يقتل ويتحطم . لم لاتعود إلى علمك ودروسك أبا كاظم ، وإلى الضحك من ذقون الناس ، فتنال من عقولهم وأموالهم ، وتعيش بين أهلك هانئاً سعيداً ؟ دع الدسائس ، ودع النمائم ، فإن من يكثر من إيقاد النار يوشك أن يحرق كفيه . إن حديث أبيك مضى وانقضى ذكره ، ولا يعرف الجيل الجديد عن الحرّانىّ إلاأنه شيخ المتأدبين وزين المحافل . إن فى الحياة أموراً كثيرة علاجها النسيان، والجرح إذا أكثرت من حكّه التهب ونَغِل، الْوِ زمام بعيرك أبا كاظم،وعد إلى زبيد، وتجنب فيها مواطن الشبهات حتى تهدأ الفتنة ، وتسكن هذه الثائرة . مالك

وللنيلىّ ! ومالك ولابن مهدى ! ومالك ولفاتك ! . . كل هؤلاء لايستطيعون أن يدفعوا عنك شرّ بنى زيدان . أنت تدّعى الحزم وهذا هو موطن الحزم . أتسمع ؟ . . . ولكن الحرّانى كان فى ثورة من الغل غطت على عقله ، فصاح : لاأسمع ،ولن أسمع . ولن أترك عمارة . ولن أترك آل زيدان . وسأنتقم لأبى . وسأذهب إلى فاتك . وسأكشف إليه سر المؤامرة. ولن يصدّنى عما اعتزمت عليه صادّ مما يسميه الناس عقلا أو حزماً .

ثم رفع الحرّانىّ رأسه كما يرفع الغائص رأسه من الماء بعد طول المكث فيه ، وكأنه كان فى عراك عنيف بينه وبين نفسه ، خرج منه ظافراً منصوراً ، فبدد الظنون وقضى على الشكوك ، ثم رمى بعينيه أمامه فرأى فى ضوء النجوم شبحاً يظهر ويختفى ، مرّة تبتلعه الوهاد ، وأخرى تلفظه الآكام، فحدد النظر ، واستحث بعيره، فإذا راكب مُجدّ السير ! فخاف الحرّانى أن يكون الرجل من عبيد عمارة ، سبقه ليفتك به فى الصحراء قبل أن يُلقى بنميمته ، وظن الرجل حينما رأى الحرانى وراءه أنه من رجال ابن مهدى أسرع خلفه من عدن ليقضى عليه قبل أن يبلغ رسالته إلى فاتك . وبعد قليل التقيا على رأس أكْمة، وكلاهما خائف

ومخوف ، فبدأ الحرانى فى خوف وتلعثم :

– السلام عليكم . لقد كنت أظن أن الصحراء لم تحمل فى هذه الليلة إلا جنيناً ، فإذا هى تحمل توأمين .

– إن الصحراء كالليالى تلد كل عجيبة .

رأى الحرانى فى صوت صاحبه رجفة ، وفى لحاته ما يشعر بالذعر ، فقوى قلبه قليلاً ، واطمأنت نفسه ، وقال : ولكنها أحياناً كالهرة تقتل بنيها .

– إنها لا تقتل من أبنائها إلا الجبناء الرعاديد ، وإن مَن كان قلبه أمضى من سيفه ، وسيفه أثبت من قلبه ، لن يموت إلا ميتة الأبطال .

وكأن الرجل لمح فى الحرّانى ما يدل على الضعف ، فتابع الحديث بقوله : ولقد يكون من أسباب التسلية والقضاء على السآمة فى الصحراء ، أن يصادف المرء فيها وحشاً يداعبه بسيفه ، أو لصًّا فاتكاً يلقّنه برمحه درساً فى الأمانة وصون الحقوق .

– ليس بالصحراء لصوص ، ولو كان بها الليلة لص لتاب إلى الله على يدى رحلى ، بعد أن يراه أفرغ من فؤاد الجبان .

– إن السارى فى مثل هذه الليلة يحمل ما يحرص عليه فى

صدره لا فى رحله ، ولعل فى صدرك من الأسرار ما هو أغلى من الذهب النضار .

ــ من أين لنا أن نصل إلى الأسرار يا ابن أخى ، وإن مَنْ ضَاق صدره بهموم الحياة، أجدر بألا يزيده ضيقاً بحفظ الأسرار . من أين الرجل ؟ وإلى أين ؟

ــ من عدن إلى الُحديـِّدة ، اتّـجر فى الإبل بين البلدين . وإلى أين أنت ؟

ــ إلى صنعاء ، اتّـجر فى الثياب بين البلدين .

ــ أخشى يا صاحبى أن تكون من ثياب الرياء التى تشـِفّ عما تحتها ، ولكن ما لنا ولهذا ! عم مساء . ثم ألهب بعيره بالسوط فعدا به ينهب الأرض نهباً .

تنفس الحرّانى وأطال التنفس، وكادت تعود إليه وساوسه ، لولا أن زجرها بالترنم بشعر البطولة والاعتماد على النفس ، والتشفى بأخذ الثأر . وما زال يطوى الصحراء وتطويه أياماً ، حتى بلغ زبيد فى مساء ليلة، فسار قدماً إلى قصر فاتك، فالتف عليه الحرّاس ، وسألوه عن شأنه ؟ فقال : إنه قادم من مكة برسالة من أميرها : قاسم بن هاشم إلى الأمير فاتك ، وبعد قليل

استؤذن له ، فتقدم من الأمير وقبّل يده، ثم أخذته الرّعدة ، وهاله ما هو مقدم عليه من أمر خطير ، فأخذ يتمتم بكلمات متقطعة يفهم منها الإخلاص للأمير والنصح له ، والاستهانة بالموت فى خدمته . فهدّأ الأمير من نفسه حتى أفرخ رَوْعه وثبت جأشه ، ثم قال فاتك : كيف حال أمير مكة ؟ فعاد الذعر إلى الحرّانى وطفق يفرك أصابعه فى اضطراب عصبي عنيف ، ثم قال : لم أجىء من مكة يا سيدى ، وإنما جئت من عدن .

– لم تجىء من مكة ؟ ! هذه أول أكذوبة للمخلص لنا ، المستهين للموت فى خدمتنا .

– إنما دعانى إلى الكذب يا سيدى خوف أعدائى ، فقد يكون بقصرك عيون لهم .

– إن قصرى أطهر مما تظن ، وخدمى أعفّ وأشرف مما تصفهم به . أخشى يا رجل أن تكون من هؤلاء الدساسين ، الذين يلبَسون مسوح الزهاد ، ويتقدمون بالنصح إلى الأمراء ليجعلوا منهم آلة للبطش بأعدائهم ، إن بابى هذا يطرقه كل يوم كثير من أمثال هؤلاء ، حتى لقد التبس علىّ الحق بالباطل ،

وكدت أغفل عن شئون الناس بالنظر فى شئون هؤلاء الخادعين والتحقق من أكاذيبهم ، فإن كنت فقيراً أعطيناك ، وإن كنت مستجيراً بنا أجرناك ، وإن كانت لك ظلامة كشفناها ، قل الحق يا رجل صريحاً ، ولا تنل من أحد فى حضرتى .

— إننى لم أجئ يا سيدى لأطلب مالاً ، ولا لأبتغى على نصيحتى للأمير أجراً ، ولكنى علمت بمؤامرة دنيئة تدبر لإسقاط الأمير عن عرشه وعرش آبائه ، فأسرعت إليه من عدن أطوى الليل بالنهار ، وللأمير بعد ذلك ما يشاء ، إما أن يصدّق ما أقوله ، فيتخذ الأهبة ويُعدّ العدة ، ليدفع الشر بالشر ، وإما ألا يصدّقه فيعرف بعد طول الندم أننى كنت صادقاً مخلصاً .

— وما تلك المؤامرة ؟ !

— المؤامرة : أن يفجأك على بن مهدى ، ومعه عمارة بن زيدان بجيش جرار ، فيستوليا على زبيد ، ويقتلا أميرها ، ويبيدا أهله ونصراءه ، ثم يجلس ابن مهدى على عرش المدينة ، ويجعل عمارة وزيره ومشيره . هذه هى المؤامرة فصدقها أو كذبها اللهم إنى قد بلّغت ونصحت ! !

— صدّقتها ، وقد جاءنى قبلك رسول من قبل « مفلح »

خادم ابن سبأ يبلغنى أمر هذه المؤامرة على النحو الذى شرحته .

– إذاً هو ذلك الرجل الذى صادفته فى طريقى . مفلح أرسله ؟ ! هذا المفلح غِربال أسرار !

– إنه رجل يكتم إيمانه بالمذهب السّنّىّ ، ويحارب الفاطمية فى الخفاء بكل ما يستطيع . آه ! عمارة فى المؤامرة . . ؟ ! ويل له منى ، وويل لقومه بنى زيدان ، ثم دعا خادمه ، وأمره بإحضار صرة بها مائتا دينار ، فأعطاها الحرّانى وشكر له حسن بلائه .

خرج الحرّانى يتعثر خائفاً من عواقب الشر الذى زج بنفسه فيه ، وهو يرجو ألا يراه من يعرفه ، ولكنه وهو فى أحد دهاليز القصر ، رأى إسماعيل بن محمد جليس فاتك مقبلاً – وكان من أصدقاء عمارة وخلصائه – فعرفه إسماعيل ، ودهش لما رأى من تغير زيه ، فقال : خير ما جاء بك إلى القصر أبا كاظم ؟ ولم هذا الزى الغريب؟! فبُهت الحرّانىّ وتلعثم وجف ريقه ، وقال : جئت فى نصيحة للأمير ، وأرجو أن يبقى الأمر بيننا سرّاً .

– إذا جئت فى نصيحة فأدعو الله أن تكون خالصة لوجهه ! أما السر فى زبيد فكالسر فى صدر المرأة ، تفشيه

لكل من تقابله بعد أن توصيه بكتمانه ! عِمْ مساءً أبا كاظم ، فإنى لا أرى فى زيِّك وأسارير وجهك ما يبشر بخير .

انصرف الحرّانىّ وهو يلعن إسماعيل بن محمد ، ويلعن المصادفة التى أوقعته فى طريقه ، ويلعن نفسه على ما اندفع إليه من أمر لا يستطيع الخروج منه سالماً .

ودخل إسماعيل على فاتك ، فرآه يهدر كالبعير الصائل ، وقد استأثر به الغضب ، فحينما رآه صاح بصوت خشن أجش : أرأيت كيف انتهت بنا الدسائس والمؤامرات ؟ ! أرأيت كيف يعمل هؤلاء الفاطميون أعمالهم فى ظلام من الخبث والرياء ، ثم يفجأون بها الوادعين الآمنين ؟ ! أعلمت أن ابن مهدى ذلك الرافضىّ السفّاح ، سيدهمّ زبيد على حين غِرة منّا ليذل رقاب أهلها ، ويثلّ عرشنا وعرش آبائنا ؟ ! أعلمت أن عمارة بن زيدان ذلك اللئيم النذل ، الذى أغدقنا عليه ، وآويناه حتى أصبح من المقربين فى القصر ، ومن كبار رجال المال والجاه ، هو الذى يمالئه ويغريه ويرشده إلى مواطن الضعف لكون وزيره فى زبيد ! ! ويل للخائن المخاتل ، دخل القصر فقيراً مملقاً ، لا يتشفّع إلا بأبيات واهنة من الشعر ، فما زال يخدعنا

بمداثحه ، ويستهوينا بعذب كلامه وسحر حديثه ، حتّى رفعناه بعد ذلة . ويل لعمارة . . . ويل لعمارة . . . .

هدِّئ من غضبك يا سيدى ، فقد يكون ما وصل إليك نميمة أفاك أثيم . وعمارة رجل . . .

ـ لا يا إسماعيل . إن الخبر وصل إلىَّ من مصدرين ، إن شككت فى أحدهما فلن أشك فى الآخر . جاءنى به رسول من « مفلح » ، ثم نقله إلىَّ الآن أعرابىّ لا أعرفه ، وكانت الرسالة واحدة لا تكاد تختلف .

ـ إن الأعرابى الذى يذكره مولاى عالم من ذبيد غيّر زيّه ، ولعلّ له مأرباً فى الكيد لعمارة .

ـ له مأرب أو ليس له مأرب ، إن رسالة « مفلح » تكفينى ، ثم نادى خادمه ، وأمره أن يدعو إليه الوالى وقائد جيشه ، فلما حضرا أمر القائد بجمع الجيش ، واستكمال العُدة ، والأخذ فى تحصين مواضع المخافة من المدينة ، ثم أمر الوالى بمصادرة جميع أموال عمارة ، وما لَه من ناطق وصامت ، والقبض عليه وقتله أينما كان وحيثما وجد .

مرّ إسماعيل بن محمد فى صباح هذه الليلة بسوق البزازين ،

فرأى على بن زيدان يمشي ووراءه عبيده وخدمه، فدهش لرؤيته ، وتقدم للسلام عليه ، ثم اجتذبه إلى ناحية ، وقال :
لقد نقل بعض الجواسيس إلى الأمير فاتك أمس نبأ مؤامرة تدبّر لاغتصاب ملكه وقتله ؛ وأن لابن أخيك عمارة يداً طويلة فى هذه المؤامرة ، فأمر بمصادرة أمواله ، وأهدر دمه ، وقد حاولت أن أسكت غضب الأمير ، فلم أستطع .

— إنها دسيسة على ابن أخى . إن عمارة أشرف وأنبل من أن يدنّس بهذه الأقذار . نحن نقتل فى الضياء، ولا نقتل فى الظلام . مَن هذا الجاسوس الذى نقل هذه الفرْية ؟

— رجل من زبيد يسمى أبا كاظم الحرّانىّ .

— الحرّانى ! الحرّانى ! ألعله ابن ذلك الحرّانى لصّ الأعراض الذى وسمنا وجهه بميسم العار منذ أكثر من عشرين عاماً ؟ !

— أظنه قضى كل هذه المدة فى انتظار الفرصة ، حتى إذا لاحت اقتنصها ليشفى صدره بهلاك ابن أخيك . أيعرف عمارة هذه الحادثة ؟

— لا . لقد أمرت عبيدى الذين اشتركوا فيها يومئذ ، أن

يبقوا الأمر سرًّا دفيناً ، فإن مثل هذه الفضائح يجب ألا تذاع .
هل لهذا الحرّانى ولد ؟

ــ له ولد فى الخامسة والعشرين من عمره ، يتجر فى الغنم .
ولم تسأل عن هذا ؟

ــ لا لسبب ، غير أنى كنت أظن أن مَنْ ذاق حلاوة الأبوة يتردد فى إيذاء الناس فى أبنائهم .

ــ وعلام عوّلت ؟

ــ عوّلت على السفر إلى مرطان فى الغد ، ويفعل الله ما يريد .

ولما انصرف إسماعيل ، عاد ابن زيدان مع عبيده إلى الفندق الذى نزل به ، ثم اختلى بعبده مرداس ، وكان أسود فاحم اللون ، طويلاً ممعناً فى الطول ، قوى العضل ، كبير الرأس ، أفطس الأنف ، يخالط بياض عينيه حمرة قاتمة ، فقال له سيده : يامرداس ، سنسافر غداً ؛ فمر العبيد بإعداد الرواحل . أما أنت فستبقى هنا ، ولن تعود إلى مرطان حتى تقتل رجلين : الشيخ الحرّانىّ ، وابنه ؛ ابحث عنهما ، واستدرجهما من حيث لا يشعران إلى مكان لا يراك فيه أحد ، ثم اقتلهما فإذا قتلتهما

فأنت حر . أفهمت ؟ اذهب .

وفى صباح الغد يسافر ابن زيدان ، ويبقى مرتاس بزبيد ، يسأل ويبحث حتى يعثر بابن الحرّانىّ ، فيدخل عليه بحيلة محكمة ، يستهويه بها ، حتى إذا خرجا إلى ظاهر المدينة وانفرد به فى مكان موحش ، قتله واختفى .

ويبقى الحرانى منتظراً عودة ابنه فلا يعود ، ثم يعثر بعض المارة بجثته فى الصحراء ، ويصل الخبر إلى أبيه ، فيعصف به الحزن ويتملكه الجزع ، ويرى والدموع تتساقط من عينيه أن ما أصابه فى ابنه إنما هو جواب رسالته لفاتك ، وانتقام سريع من آل زيدان على إيقاعه بابنهم عمارة ، وأنهم لم يسكتوا عنه ، وأن ذراعهم ستمتد إليه بعد أن امتدت إلى ابنه ، وأنه يجب أن يفرّ بنفسه وأهله بعيداً عن اليمن . فيجمع بقية ما لديه من مال ، ويركب مع أهله سفينة من زبيد إلى جُدّة ، ليأخذ منها سفينة أخرى إلى مدينة القُلزُم (السويس) . فقد رأى أن مصر خير مكان ينجيه من آل زيدان ، ورأى أن يختفى بها رابضاً حتى تحين له فرصة الوثوب .

٤

حينما غادر الحضرمى دار ابن مهدى، سار وحده فى الطريق واتجه نحو دار عمارة ، فوجده لا يزال نائماً ، حتى إذا استيقظ حدّثه بما دار فى مجلس ابن مهدى من حديث وبما قاله فيه الحرّانىّ والنيلىّ .

فهزّ عمارة كتفيه استخفافاً ، وقال :

ــ من الحرّانى هذا ؟ فإنى لا أعرفه ، وعجيب أن يحقد علىّ من لا أعرف ! !

ــ إنه رجل من الفقهاء الجوّالين ، لا يعرف صُبْحُه أين يستقر فى مسائه ، ولكنه فيما يظهر من عينيه ، شديد البغض لك والحقد عليك . فأجاب عمارة : عجبى من صعلوك ينافس الملوك !

ــ هذا كلام تُشَمّ منه رائحة الإمارة ! !

فابتسم عمارة ابتسامة ألم واستنكار ، وقال :

ــ لا يا أسامة . . . إنه كلام رجل يحب العدل ويكره الظلم

والظالمين . . . رجل نصب نفسه لنصرة الحق ، فوهب له دمه وأهله وماله ، لا يهاب فى سبيله — إذا جد الجد — أشفار السيوف ولا أسنّة الرماح . . . رجل إذا وفى لقوم نافح عنهم ، وكافح دونهم ، حتى يحبس الموت لسانه ويعطّل ساعده .

— وقد يحتال أحياناً ويلبَس لكل حالة لَبوسها .

— وقد يحتال أحياناً يا أسامة ! ! وقد يمدح أحياناً مَن يصغر عن الهجاء ، رجاء الوصول إلى الغاية التى رسمها لنفسه ، وقد يصانع أحياناً أناساً أقلُّ مايستحقون ضرب السياط . . متى ترحل إلى زبيد ؟

— بعد عشرين يوماً ، حتى أبيع جميع البنّ الذى جئت هنا لبيعه .

— ربّما رحلت بعد عشرة أيام ، فإن الحرّ هنا لا يطاق .

وبعد عشرة أيام أو نحوها ، قامت القافلة إلى زبيد ، وكان بين المسافرين عمارة بن زيدان ، وبعد ليال بلغت القافلة أسوار المدينة ، وكان وصولها عند الغروب فاتجه عمارة نحو بيته ، وبينما هو فى طريقه مرّ به القائد إسماعيل بن محمد جليس الملك فاتك ، وكان راكباً فرساً فلما رآه أخذ يقرأ : « يا موسى إن الملأ يأتمرون

بك ليقتلوك ، فاخرج إنّى لك من الناصحين . »

فأسرع عمارة إليه ، وأخذ بعنان فرسه ، وقال : بحق مودّتى عليك ، إلا ما أفصحت يا ابن محمد ! ! فقال : أحاط فاتك بجميع أموالك وتجاراتك ، وجعل لمَنْ يأتيه برأسك ألف دينار .

— ولم فعل هذا يا ابن محمد ؟ !

— هبط عليه تمّام أثيم من عدن فنقل إليه أنك تتآمر أنت وابن مهدىّ وابن سبأ على قتله ، واستلاب ملكه . . . ارحل أبا محمد . . . وأسرع ، واتخذ الليل مركباً .

فدقّ عمارة بكفّ على كفّ ، وقال : لقد أصابتنى عين الحفائلى — عليه لعنة الله — فلطالما قال لى : أنت من كبار التجّار . . . أنت من أصحاب الوجاهة . . . أنت فى ثروة ونعيم . . . فليهنْه اليوم أنى أصبحت الفقير إلى الله تعالى لا إليه . . . عمارة ابن زيدان اليمنىّ الشريد الطريد .

قاتل الله العلم والأدب ! ! فإن عقارب الحقد لو أرادت أن تتخذ جحراً ما اختارت لها إلا صدور الأدباء .

ثم أسرع عمارة إلى داره ، وجمع متاعه وما بقى لديه من مال قليل ، وأعدّ لأهله وأولاده أربعة من الإبل ، وألحّ على الجمّال •

أن يسرع فى السير ، فقال الجمّال: إلى أين ؟؟ قال : إلى مكة . . . إلى أمّ القرى . . . إلى البيت الحرام الذى من دخله كان آمناً .

وصل عمارة وأهله إلى مكّة فقيراً بائساً ، بعد أن كان فى بسطة من الرزق وظلّ من السعادة ، يعيش عيشة الترف ، ويتقلّب فى أكناف العز والنعيم . فاكترى داراً بالقرب من البيت المحرّم وأخذ ينفق على أهله فى ضيق وشدة مما بقى له من مال ، انتشله من يد الزمان ، وجلس ذات يوم فى المسجد ، وبدأ درساً فى التفسير . فأقبل الناس إلى الاستماع له ، فسحرهم ببيانه وفصاحته ، وقوة عارضته ، ورنين صوته . فتحدث أهل مكة بالشيخ اليمنى ، وسار ذكره وتنقل اسمه من لسان إلى لسان ، وأقبل عليه عظماء مكة وكبار تجارها ، يبذلون له ودّهم ، ويتسابقون إلى إكرامه بالهدايا والأموال .

بقى عمارة على تلك الحال أشهراً . وفى أصيل يوم وهو فى داره ، أقبل عليه رسول أمير الحرمين : قاسم بن هاشم — يدعوه إلى لقاء الأمير .

فلبس خير ثيابه وتطيّب، وأخذ يحدّث نفسه ويقول :

ليت شعرى لم دعاك ابن هاشم ؟ ؟ لقد جرّبتَ معاشرة الأمراء والملوك فلم تعد منها إلا بصفقة المغبون ! ! . . . ولكنك يا عمارة لم تخلق لتلقى درساً فى مسجد على أغرار مهازيلَ ... إنما خلقت لتكون زعيما ، وابترك فى الدنيا دويّا . .. ولا بد لهذا من صحبة الأمراء والملوك . سرْ إليه يا عمارة . فلعل الدهر أراد أن يستغفر من زلته ! ! ولعله — وأنت من أبنائه — أراد أن يؤدبك تأديب الآباء لأبنائهم ! ! ثم عاد فأدركه عطف الأبوّة وحنانها .

سار عمارة حتّى بلغ دار الأمير ، فاستقبله عبيده وخدمه ، وأوصلوه إلى حجرة ثمينة الأثاث ، أنيقة الترتيب .

حتّى إذا استقر به المجلس ، أقبل الأمير بين حاشيته ورجاله ، فحيّاه عمارة فى أدب وخشوع .

وأمره ابن هاشم بالجلوس ، فجلس بعيداً ، فدعاه للجلوس إلى جنبه ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وكثير من شئونه ثم قال : إننا هنا لا نرى الدنيا إلا فى موسم الحج ، حتّى إذا انقضى الموسم عدنا إلى عزلتنا ، كأننا فى صومعة راهب . فقال عمارة :

— هذه يا مولاى نفحة من نفحات البيت الحرام ، وبركة من بركاته . ألا ترى أن الدنيا جميعها تسعى إلى أهله وهم لا

يسعون إليها ؟ ! . . . هنا يا مولاى نرى جميع أمم الأرض فى أحسن أحوالهم . . . نرى هنا : اليمنىَّ ، والمصرىّ ، والمغربىّ ، والشامى، والعراقىّ ، والهندىّ ، وأبناء كل قطر ، ترفّ عليهم راية الإسلام . هنا البحيرة العظمى المقدسة التى تصب فيها أنهار الدّين القَيِّم الحنيف . . . هذه يا مولاى دعوة إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حين قال :

« ربّنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ، ربّنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوِى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

ــ حيّاك الله يا شيخ ! ! إن لحديثك لسحراً ! ! ولو أن علماء الإسلام كان لهم هذا البيان الرائع ، وتلك القوة النادرة فى التفكير ، واتجهوا إلى هداية الناس وإرشاد الأمراء ــ لكان للإسلام شأن غير شأنه اليوم . . . أزرت مصر يا مولانا الشيخ ؟ ؟

ــ لم أزرها يا مولاى . وقد عزمت على مجاورة بيت الله الحرام ، حتى ألقى الله على عتبته .

ــ لا . . . لا . . . أنت لا تزال فى قوّة شبابك . ومثلك

— فيما أرى — من تضيق بآماله الدنيا إذا اتّسع بها صدره .

حدثت فى العام الماضى بموسم الحج بعض حوادث صغيرة للحجّاج المصريين . بلَغت إلىّ فى حينها فلم آبه لها ، ولكن يظهر أن الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، قد عدّت وقوعها تعدّياً عليها ، واستهانة بسلطانها . لذلك منعت فى هذا العام الصدقات التى كانت تبعث بها لفقراء مكة ، والمنقطعين إلى مجاورة البيت .

— ماذا كان نوع هذه الحوادث يا مولاى ؟

— حوادث تافهة . . . أغار بعض خدمى على التّجار المصريين ، واستلبوا جميع أموالهم .

— حقّاً إنها حوادث تافهة ! ! . . . وما مقدار ما كان يرسله الخليفة إلى مكّة فى كل سنة من الصدقات ؟؟

— كان يرسل عشرين ألف جريب من الحنطة ، ومائة ألف دينار .

— هذا مقدار عظيم .

— نعم هو مقدار عظيم ، أحسّ أهل مكة فقده . وقد جاءنى وكيلى منذ أيام ، يرجونى فى عمل شىء لاسترضاء الخليفة الفاطمىّ ، ووزيره الملك الصالح طلائع بن رُزّيك . وقد

توسمت فيك مما سمعت ورأيت ، أنك خير مَنْ يستعان به فى مثل هذه الأمور .

ــ إننى طوع أمرك لولا . . .

ــ لا تقل « لولا » فإننى أعددت لك خمسمائة دينار ، تعصف بكل ما تجرّه « لولا » من معاذير . ثم إنى أعددت الرواحل لك ولأهلك ، وأمرت أن تصرف لك مئونة السفر بسعة وإغداق . . . أرضيت أبا محمد ؟ ؟

ــ رضيت يا مولاى شاكراً

ــ تذهب إلى سيّدة القصور : عمّة الخليفة الفائز ، وإلى وزيره : طلائع بن رزيك ، وتلقى إليهما بسحرك ، وما وهب لك الله من فصاحة وبيان ، وقوّة حجة وبرهان . وكلما زاد ما يرسلان به إلى البيت الحرام زدناك .

ــ وهل لسيّدة القصور شأن كبير فى إدارة شئون الدولة الفاطمية ؟ ؟

ــ لها كل الشأن : فهى العقل المفكر ، واليد الباطشة . ولها فنون من الحيل والخداع يعجز عن إدراكها أذكياء الرجال . ثم إنها تتخذ من أنوثتها ستاراً لدسائسها ، ومن جمالها البارع

شباكاً لاقتناص أعدائها . فقد سمعت من حجيج مصر : أنها في الحسن والرشاقة واجتذاب العقول ، آية الله في خلقه ، وأنها فتنة لكل من رآها ، ولا يزال العهد قريباً بما كان من قتل نصر ابن عباس لابن أخيها الخليفة الظافر ، وفراره وفرار أبيه عبّاس الصنهاجيّ إلى الشام . أتدري ما فعلت سيدة القصور ؟ لم تبك كما تبكي النساء ، ولم تضرب كفاً بكف كما تفعل العجائز ، ولكنها أرسلت رسلها إلى قائد الإفرنج بعسقلان ، ومعهم مائة ألف دينار على أن يقضي على عبّاس وابنه . فقتل القائد عبّاساً ، وأرسل ابنه نصراً إلى سيدة القصور ، وأظنه الآن في طريقه إلى القاهرة .

ـ إنها حقّاً امرأة داهية ! !

ـ فوق ما تظن ! ! . . . والخليفة الفائز الآن في يدها ، وهو صبيّ لا تزيد سنّه على ستّ سنوات . وهي لذلك تلعب برجال الدولة ، هذا مرة ، وذاك أخرى . . . فاحترس منها أبا محمد .

ـ وما حال الوزير طلائع بن رزيك معها ؟ ؟

ـ لا أدري . . . ولكنه لا يقل عنها دهاء وخبثاً . وسنشهد

قوياً صراعاً بين ثعبانين .

وهناك رجل آخر ، أعيذك بالله منه ومن مكره ومِحاله : هو مؤتمَن الخلافة ، خادم الخليفة وسيدة القصور ، ورئيس الخدم والجنود السودانية . هذا رجل لو أراد إبليس أن يتخذ له خليفة فى الأرض ما اختار غيره . . . فاحذره أبا محمد ! !

ثم قام وفتح خزانة ، أخرج منها صرّة بها خمسمائة دينار ، فناولها عمارة ، وقال : متى الظّعن ؟ ؟

ــ كما تأمر يا سيدى .

ــ بعد ثلاثة أيام . . . اكتب على لسانى كتابين : أحدهما للفائز . والآخر لابن رزيك . يمتزج فيهما الاستعطاف بالعتاب ، ويلتبس فيهما الاستجداء بالشمم والإباء .

أنت تعرف أبا محمد كيف تكتب مثل هذا ... عِمْ مساءً .

٥

وصل الحرّانى إلى القاهرة بعد أن أجهده السفر ، ونال منه بعد الشُقة ، إلى ما كان ينتابه من أحزان على ابنه ، وأحقاد على

عمارة وأهله . وهو بين هؤلاء وأولئك مطرق الرأس دامع العين ، يدركه الضعف فيرجّع ويحوقل ، ويثور به الغضب فيهز قبضته فى عنف وقوة ويتمتم : لا . . لا . . لن أبكى بكاء النساء ، ولن أستكين استكانة الإماء . وهذه اليد التى لم تخلق لهز السيوف ولا للعب بالرماح ، أعاضنى الله بها عقلاً يهزم الجحافل ويدك المعاقل . ولأمر ما يقول المتنبي :

الرأى قبل شجاعة الشجعان

ولأمر ما يقول :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم   أدنى إلى شرف من الإنسان

إن المستعين بالقوة يحارب بسلاح مكشوف ، والمستعين بالعقل يحارب بسلاح خفىّ مستور . وصاحب القوة قد يزِل فيهزم ، وصاحب الحيلة إن أخطأ استطاع أن يتدارك خطأه بحيلة أخرى . وصاحب القوة يتقيه عدوه فلا ينال منه منالا ، أما صاحب الحيلة فهو صديق عدوّه وموضع أمانته ومكان ثقته .

إن الله خلق الإنسان ، ومنحه القدرة على التشكل ، فهو يستطيع أن يكون أسداً ، ويستطيع أن يكون ثعلباً ، ويستطيع أن يكون ثعباناً ، ويستطيع أن يكون ذبابة تطنّ وتطير . فلم

لا نتشكل ؟ ولم لا نقابل كل حالة بحيوان مما فى أنفسنا ؟ إن البُلْه هم الذين لا يستطيعون أن يستروا غضبهم بالضحك ، وحزنهم بالسرور ، وكراهتهم بالبشاشة والتسليم . والعاقل هو الذى يستطيع أن يقف أمام المرآة ، بعد أن يقطع الحبل بين وجهه وقلبه ، ثم يصور ملامحه كما يشاء ويهوى .

تجول هذه الخواطر بصدر الحرّانىّ ، فينتعش ويعود إليه نشاطه ، ويثوب إليه أمله فى الحياة .

أنزل أهله بدار بجىّ الروم بالقرب من الباب المحروق . وأول شىء أوحى إليه به دهاؤه أن يغيِّر اسمه ، فسمَّى نفسه زين الدين بن نجا ، وأن يظهر الزهد والقناعة والتبتل ، وأن يدَّعى أنه من الطائف بالحجاز ، ثم رأى أن خير وسيلة تقرّبه إلى قلوب العامة والخاصة . أن يُظهر غيرته على المذهب الفاطمى ، وشدة التّمسك به ، وإذاعة محاسنه وفضائله . فتنقل فى المساجد والجوامع يخطب فى فضل المذهب ومناقب آل النبى . وكان فصيح اللسان ، قوى الحجة ، حاضر البديهة ، قصاصاً بارعاً ، فكِه الحديث جذاباً . فالتفّ عليه الناس . وجاء بعض رجال القصر ليستمعوا له بعد أن طارت إليهم شهرته . وكان أحفل أهل

القصر به وأكثرهم به ولوعاً : إبراهيم بن دُخّان رئيس ديوان الرواتب بالدولة الفاطمية . وكان ابن دخان فى نحو الأربعين، معتدل الطول ، نحيف الجسم ، أسمر اللون ، له عينان شديد سوادهما ، بيسراهما حول خفيف لم يذهب بمالهما من تأثير نافذ وقوة مسيطرة . وكان أنفه كأنوف أكثر المصريين ، كاد يكون أفطس ، لولا أن تداركه ارتفاع وبعض استواء فى قصبته وكان بشفته السفلى بعض الغلظ دفعها إلى التدلى قليلاً . وكأنه أحس هذا النقص ، فهو لا يفتأ يجمع شفتيه كلما خطر له هذا الخاطر . وكان وجهه فى جملته يدل على الشّره والشهوانية والختل والأثَرة . وكان ابن دخان عارفاً بتاريخ مصر واسع الاطلاع فيه ، وكان يحب مصر أو يحب نفسه، ويحب المذهب الفاطمىّ أو يحب نفسه . فكلما استطاعت مصر أن تدرّ عليه الأموال ، وتهيّئ له عيشة البذَخ والنعيم أحبها . وكلما استطاع المذهب الفاطمىّ أن يمنحه الجاه والنفوذ أحبه ونافح دونه دعا ابن دخان مرّة الحرّانىّ إلى داره ، أو زين الدين بن نجا — كما أختار أن يسمى نفسه — وبعد أن نالا من طعام العشاء ، جلسا فى روشن يطل على خليج أمير المؤمنين ، وتنقلا فى ضروب من الحديث .

فقال ابن دخان :

ــ كيف رأيت القاهرة يا سيدى الشيخ ؟

ــ إنها اليوم زينة العواصم . وموئل الدين ، وعش العلماء ، وقبلة الشرق .

ــ إن الفاطمية يا سيدى مظهر تلك العظمة ، ومبعث ذلك الجمال . إن مصر لم تر منذ عهد ابن العاص عهداً كعهد الفاطميين ، فهو عهد رخاء وعدل ، وطمأنينة وثروة ، وابتهاج وسرور . أتعرف أن خراج الدولة لا يقل عن ألفى ألف ومائتى ألف دينار ؟ ! وأن ما ينفق على القصر ورجال الدولة ، وفى الهبات وإظهار عظمة الملك ، يزيد على ثمانمائة ألف دينار ؟ !

ــ إن مصر يا سيدى هى الجنة التى وعد المتقون ، أكلها دائم وظلها . وقد يدهش المرء لما يرى بها من كثرة العلماء والطلاب ، وكثرة ما يؤلف من الكتب فى العلوم على شتى أنواعها .

ــ لقد كثر العلماء الوافدون على مصر ، حتى تضاعف ما تنفقه الدولة عليهم . ولو كانوا جميعاً مثلك فى الزهد والتقشف والبعد عن مطامع الدنيا ، ما أخذت عليهم مأخذاً . ولكن أكثرهم يفد للاستجداء وانتهاب الغنائم والرواتب !

لم أدعك الليلة للتحدث فى شأن الدولة ؛ ولكنى دعوتك للائتناس بك ، والتمتع بمجالستك ، ولأخبرك أن المشرف على خزائن الكتب بالقصر الحسينَ بن زيد قد انتقل إلى جوار ربه منذ أيام . وأنى قد رأيتك خير من يصلح لهذا المنصب ، لما عرف بين الناس من علمك وفضلك وتعصبك للفاطمية .

— إننى أزهد الناس يا سيدى فى هذه المناصب . وإنى أكره أن يكون رزقى محدوداً معيّناً ، فأفقد فضيلة التوكل على الله توكلاً مطلقاً خالياً من الشوائب . ولا أحب من رزق ربى إلا ما كان مجهولاً مغيّباً .

— إن قاضى القضاة وداعى الدعاة وجميع زهاد الفاطمية ، لهم رواتب محدودة معينة ، فاقبل هذا الراتب يا مولانا . وتصدّق به إن شئت .

— هذا حل معقول .

— لقد أخبرت مؤتمن الخلافة بك ، واقترحت أن يسند إليك هذا المنصب ، فقبل مسروراً ، ورأى أن يكون الراتب ثلاثين ديناراً .

— أرجو أن نوفق جميعاً إلى الخير .

ثم نهض زين الدين وقال : سبحان الله وبحمده ! ! اللهم -

بجاه فاطمة وابنيها الشهيدين ، وخلفائك الطاهرين من عترتها أن تملأ هذا المكان أمناً وإيماناً ونوراً وبركة .

ثم ودعه وانصرف . وفى الصباح ذهب إلى القصر ، وعرّفه ابن دخان بكبار الأساتذة والقواد . وبدأ عمله الجديد .

وكانت خزائن الكتب تشغل بهواً واسعاً وحجراً كثيرة . وقد قسمت رفوفها أقساماً : لكل علم قسم خاص به . وكانت تشتمل على أكثر من مائتى ألف كتاب فى الآداب والعلوم ، أكثرها من نفائس الكتب ونوادرها . هذا عدا المصاحف التى كتبها بالذهب كبار الخطّاطين . كابن مقلة ، وابن البوّاب . وبها أكثر من ألف نسخة من تاريخ الطبرى ، منها نسخة بخط الطبرى نفسه . وأكثر من مائة نسخة من الجمهرة لابن دُريد . وأكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد ، إحداهن بخط الخليل . وجملة القول وقصاراه : أنها كانت أعجوبة الدنيا ، بذّت جميع دور الكتب فى بغداد والأندلس .

بقى الحرّانى فى هذا المنصب الجديد وادعاً هانئاً ، لا يكدّر عليه عيشه إلا فجيعته فى ابنه ، وقصر يده عن أن تنال عمارة أو أحداً من أهله بانتقام .

٦

غادر عمارة وأهله مكة ، ومعه كتابا الأمير : قاسم بن هاشم ، وسارت به النجائب تشق أديم الصحراء ، كأنها ساريات الأحلام فى الليل البهيم . وقد بدت الكثبان وسنى يوقظها وخد الإبل ، وأراجيز الحداة ، فتصحو قليلاً ثم تغفى .

هدوء وسكون ، وصمت ، وجلال ورهبة .

هذه هي الصحراء . . . من صخورها خلقت أخلاق العرب ، ومن أطيافها تلقوا وحى شعرهم ، ومن مداها الفسيح المترامى استمدوا خيالهم ، وفى جانبها نبت الإباء العربى ، والاعتزاز بالنفس ، والكرم ، والحمية ، والصبر على المكاره .

نظر عمارة أمامه ، وهو فوق قتب بعيره ، فرأى بحراً مائجاً من الكثبان والرمال ، ورأى فضاءً لا تبلغ العين غايته ، ورأى نجوم ليل الصحراء وقد زدن لألاءً والتماعاً وقرباً ، كأنها اللؤلؤ

اللمَّاح علق بخيوط القدرة بين الأرض والسماء . فتنهد وقال : آه أيتها الصحراء ! ! أين أبطالك الذين ملأوا الدنيا عمراناً وعلما ، وشرائع وفنونا ؟ ! أين أبطالك الذين كانوا ملائكة العروش وشياطين الهيجاء ؟ !

علّميني يا صحراء تلك الدروس التي تلقاها خالد بن الوليد وسعد ابن أبي وقّاص ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ! ! بُوحي أيتها الصحراء لي بسرّك الدفين . . . فإني عليه جدّ أمين ! !

إني يا صحراء أودّ أن أكون لك ابناً ، فأوصيني بما تشائين ... لي آمال أوسع من مداك ، ومطالب صعبة المرتقى كجبالك ، فهل أنا بالغ آمالي ، فائز بمطالبي ؟ ؟ قولي يا صحراء ماذا يجب أن أفعل ! ! واهمسي في أذني كما همست في آذان أبنائك الأولين ...

وهكذا ظل عمارة يحدّث نفسه ، وظلت الإبل تطوى الفلاة ، حتى بلغت جدّة . فنزل الركب ، وتقدّم من عمارة نائب الأمير قاسم — وقد سبق إليه خبر قدومه — فأنزله خير منزل ، وغمره بصنوف من الحفاوة والإكرام . ثم أعدّ له سفينة تنقله إلى مصر فأبحر بها في بحر « القلزم » وكان الجو صحواً والريح رُخاء . فوصل بعد أيام إلى مدينة القلزم «السّويس» ومن ثَمّ استأجر

إبلاً تحمله وتحمل أهله ومتاعه إلى القاهرة . وكانت القاهرة فى هذا العهد تمتدّ من ناحية الشمال إلى باب النصر وباب الفتوح . ومن ناحية الجنوب إلى باب زَويلة الجديد . ومن الشرق إلى باب البرقية والباب المحروق . ومن الغرب إلى خليج أمير المؤمنين ، وبهذه الجهة باب سعادة ، وباب الفرج ، وباب القنطرة .

وكانت مزدحمة السكان ، واسعة العمران ، بها كثير من الجوامع والرُّبُط والدّور العظيمة والمساكن الجليلة ، والأسواق المملوءة بأنواع التجارات والخانات والفنادق المكتظة بالمسافرين .

وصل عمارة إلى القاهرة فى ظهر يوم من ربيع الأول ، سنة خمسين وخمسمائة . وهو شاب فى الثلاثين ، وسيم الطلعة ، مشرق الديباجة ، رائع القسمات ، معتدل الطول ، شديد الأسر ، قوىّ العضل . فسار بأهله من الريدانية إلى باب الفتوح ، ونزل فى دار تشرف على جامع الحاكم بحارة الريحانية ، حتى إذا استراح من لغوب السفر أياماً بعث برقعة إلى الوزير ابن رزيك ، يطلب فيها شرف المثول أمامه ، وأمام الخليفة الفائز ، وكتب فى آخرها

دعوا كل برق شِمتُمُ غيرَ بارق　　يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحىّ فكل من　　على الأرض يُنسى ذكرُه عند ذكره

ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى ... فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها ... فكل امرئ يُرجَى على قدر قدره

فأرسل إليه ابن رزيك رسولا يخبره بأن المقابلة يوم الاثنين بالقصر الكبير . فأعمل عمارة خياله ، ودعا إليه شيطان شعره ، وكتب قصيدة طويلة أعدّها للإنشاد أمام الخليفة .

فلما جاء الموعد استأجر بغلة أوصلته إلى القصر الكبير ، فرأى من عظمته ، وضخامة بنائه ، وإبداع نقوشه ، ما أدهشه وأطار لبه . وقصور الفاطميين وما كان لها من سموق بنيان ، وبراعة نقوش ، وجمال أثاث ، وحسن تنسيق — يكِلّ القلم دون وصفها ، ويعجز البيان أمام سناها وسنائها . فليس فى طوق الخيال أن يلمّ بما كانت توحى به من عظمة ملك ، وقوة سلطان ، وضخامة ثروة ، وسطوة دولة ، وإسراف فى الترف ، وإغراق فى النعيم .

لا يستطيع القلم أن ينقش ، ولا البيان أن يرسُم ، ولا الخيال أن يصوّر . فخير لنا أن نلوى القلم ، ونُسكت البيان ، ونحبس الخيال ، ونترك للقارئ أن يتخيل ما يشاء ويرسُم من صور العزّ والملك والسلطان ما يريد .

وصل عمارة إلى القصر الكبير ، فاستقبله الأستاذون المحنّكون، وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة ، يتسلمه أستاذ ليوصله إلى آخر حتى انتهى إلى قاعة الذهب ، وكأنها بنيت من الذهب حقًّا ، لكثرة النقوش الذهبية التى تملأ حيطانها وسقفها . وهى قاعة العرش التى يستقبل فيها الخليفة رجال دولته فى أيام المحافل والأعياد والمواسم .

دخل عمارة خاشعاً مطرقاً ، وكلما حاول أن يرفع من طرفه قليلا ، رأى مهابة وجلالة ، وملكاً يبهر العيون ، ويهول النفوس . رأى الخليفة الفائز على العرش ، فى أثواب كلها ذهب وديباج ، رآه صغيراً لا يتجاوز السادسة ، نحيل الجسم، مصفرّ الوجه ، له عينان واسعتان كعينى النمر كلهما بريق والتماع . ورأى الأستاذين المحنكين حوله فى رهبة وخضوع ، كأنهم يحرسون سرًّا سماويًّا مقدّساً، ورأى وزيره الصالح بن رزيك ، واقفاً إلى يمينه فى خشية وقنوت ، كأنه فى معبد صلاة وتبتل ، وإلى يساره داعى الدعاة ، وقاضى القضاة ، والأمراء ، وكبار الرؤساء والقواد ، وفيهم الأوحد بن تميم ، وشاوَر بن مجير ، وضيرغام اللخميّ، ومجد الإسلام بن الصالح . ونقباء المعلمين .

أما كبار الكتّاب ورجال القصر ، فجلسوا خلف هؤلاء ، وكان بينهم : ابن الخلاّل صاحب ديوان الإنشاء ، والجليس ابن الحباب ، والمهذّب أبو محمد الأسوانىّ ، وزين الدين بن نجا ، وإبراهيم بن دخان ، رئيس ديوان الرواتب .

وكان الصمت يملأ النفوس هيبة ، فتقدم عمارة من الخليفة ، فقبّل يديه وقدميه ، ثم تقهقر قليلاً ، وأنشد بصوت ندىّ ونبرات ساحرة أخّاذة :

الحمد للعيس بعد العز والهمم	حمداً يقوم بما أولين من نعم
قرّبن قربَ مزار العز من نظرى	حتى رأيت إمام العصر من أمم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته	ماسرت من حرم إلاّ إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها	بين النقيضين : من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار . . . مقدّسة	تجلو البغيضين : من ظلم ومن ظلم
وللعلا ألسن تُثْنى محامدها	على الحميدين : من فعل ومن شيم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً	فوزَ النجاة وأجرَ البرّ فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما	وزيرُه الصالح الفرّاج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله	إلا يد الصانعين : السيف والقلم
ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها	عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وكان الصالح شديد التأثر بالشعر الرائع ، يؤديه صوت رائع . فاهتزّ طرباً ، وأخذ يطلب الإعادة بين بيت وبيت . وملك حسنُ الشعر على الأستاذين ورجال الدولة وأدبائها شعورهم ، فلم يستطيعوا إلا أن يجهروا بالاستحسان والإطراء .

وكان بقاعة الذهب باب عليه ستار من الحرير المطرّز بالذهب ، كان ينفرج أحياناً فتطلّ منه عينان ساحرتان ، في وجه يمتزج فيه ماء النعيم بماء الفتنة والجمال ، وما كاد عمارة يتم إنشاده ، حتى أفيضت عليه الخلع المذهبة من أثواب الخلافة ووصله الملك الصالح بخمسمائة دينار ، وجاء بعض الأستاذين إليه يحمل صرة بها خمسمائة دينار ، وهو يقول : إن سيدتي سيدة القصور ، قد أعجبت بك وبشعرك أعظم الإعجاب ، وهي تبعث إليك بصلتها هذه ، وقد أمرت أن تُخلَى لك « منظرة الغزالة » المشرفة على خليج أمير المؤمنين ، ثم ابتسم وقال : على شرط أن تعيد أمامها إنشاد قصيدتك الرائعة ، لأنها لم تستمتع خلف الستار بكل ما فيها من جمال .

ثم أقبل عليه المهذّب أبو محمد الأسواني — وكان زعيم الشعراء بمصر وسيّد كتّابها — فشدّ على يديه مهنئاً ، وقال :

أيها الشاعر اليمنى ، هل أطمع فى أن أكون لك صديقاً . فإننى عند ما رأيتك أحسست بحبّى لك ، وحينما سمعتك أحسست بإكبارى لأدبك . لقد ألح علىّ مولاى الملك الصالح ألا تنقطع عنه ، وألاّ تحرمه زيارتك ، وأن تنثر عليه من حين إلى حين فرائد شعرك ، فإنه كريم أريحىّ يهتزّ للمديح ، ويجزل الثواب عليه ، وقد أمر أن يخلع عليك لقب : شاعر القصر ، وأن تمنح راتباً كل شهر يقرب من رواتب كبار الدولة .

فما استطاع عمارة إلا أن يشدّ على يدىْ صديقه الجديد ، بحماسة وإخلاص صادق ، ورجاه أن يبلّغ عظيم ثنائه وجميل شكره للملك الصالح ، على جزيل ما وهب ، وكريم ما أعطى .

وخرج ابن دخان صاحب ديوان الرواتب ، وزين الدين بن نجا ، فمال ابن دخان على صاحبه ، وقال : ما هذه الشّعوذة التى شهدناها اليوم يا سيدى ؟ ! شاعر مستجد متكسّب بشعره يُلقى أبياتاً سمجة غثّة ، فينال من الجوائز والعطايا ما لم يستطع المؤرخون ادّعاء مثله فى عهد الرشيد ؟ ! ماذا قال يا صاحبى بالله عليك . . ؟ ! ماذا قال . . . ؟ ! « بين النقيضين : من عفوٍ ومن نقم » ؟ ! . . . « تجلو البغيضين : من ظلم ومن

ظلَم » ؟ ! . . . ما أسخف ! ! . . . وأنا أقول له : يا ابن الشقيين : من عاد ومن إرم ! ! . . . وسارق الهاربين : النوق والغنم. وكان زين الدين مربدّ الوجه حزين النفس ، بعد أن رأى عدوه الذى طالما تمنى له الغوائل ، يصل إلى هذه المنزلة ويحظى بذلك الإقبال . فتكلف الابتسام وقال : ما كنت أظنك شاعراً أبا الفضائل. يجب أن تحمَد الرجل لا أن تذمه ، لأنه أول من ألهمك الشعر .

ـ أحمَده؟! أنا لا أطيق يا أخى هؤلاء الأفاّقين الذين يردون مصر من كل صوب ، لامتصاص دمائها ، واشتفاف لبنها. كأنها بقرة حلوب خلّفها لهم أبوهم آدم . هذا يأتى ببيت من الشعر فنسميه سيّد الشعراء ، وهذا يجيء بحَفنة من علم ، فنصيح : إنه أعلم العلماء، وهذا متبتل ناسك قطع الفيافى والقفار إلى مصر ، ليزور مشهد الحسين ـ رضى الله عنه ـ فنصبُّ عليه العطايا والنعم حتى ننسيه نسكه وتبتّله . . . ما هذا يا ابن نجا ؟ ! أليس فى مصر شاعر يفوق هذا اليمنىّ المحتال ؟ أليس بمصر عالم يفوق هؤلاء الذين يسقطون علينا كل يوم من كل نواحى الأرض ؟ !

وغداً يا سيدى غداً ، يجىء هذا الصعلوك ليطالب براتبه الذى رتّبه له الملك الصالح فى كل شهر . . وما راتبه ؟ ؟ مائة وخمسون ديناراً ، أنت تكدح وتنصّب ، وتعمل نهاراً وليلا فى خزائن الكتب ، ولم يزد راتبك على ثلاثين ديناراً . أنا لا أدرى ماذا سيكون من شأن الخزانة إذا استمررنا فى هذا الإسراف ؟ !

فابتلع الحرّانى ريقه من هول ما دهمه من قدوم عمارة والحفاوة به ، وقال : هوّن عليك أبا الفضائل . إن مصر كثيرة الخيرات واسعة الثروة ، وإن من المحتوم عليها أن تكرم أبناء العربية ، وأن تحسن لقاء الوافدين عليها . ثم إنى لا أعرف سبباً لبغضك هذا الرجل ، وهو وسيم الطلعة ، خفيف الروح ، وإن كان وجهه يدل على الخبث والدهاء واللؤم ؟ !

ــ لا أدرى لم أبغضه يا ابن نجا ؟ ! لقد سمُج فى عينى منذ رأيته ، وأحسست ببغض له يملأ قلبى . وهذا وحى الروح يا أخى ، وإذا كان « لهوَى النفوس سريرة لا تعلم » فإن لبغضها سريرة لا تعلم كذلك . . . لا أدرى والله ! ولكننى أشعر أنه يجب أن يزول هذا الرجل من طريقى ، حتى لكأن غرائز النّمر

تتحرك فى نفسى للوثوب عليه والتهامه .

— هذا ما أحسّ بقليل منه. ولكن ما لنا وللرجل ! دعه إلى الأقدار . . . دعه إلى الأقدار .

٧

بعد عشرة أيام من إقامة عمارة بالقاهرة، أرسلت سيّدة القصور إليه عبدها « راجحاً » ليدعوه إليها . فركب حصاناً أشهب أهداه إليه الوزير طلائع ، وصحبه راجح على جواد عربىّ كريم . فسارا من حارة برجوان ، وكانت طويلة كثيرة التعاريج والمنحنيات ، حتى وصلا إلى طريق باب الفتوح ، وبدا لهما الجامع الأقمر إلى اليسار ، فانحدرا جنوباً إلى ما بين القصرين. وتقدّم راجح بجواده نحو باب الزّمرّد : وهو أحد أبواب القصر الكبير ، فنزل وطلب من صاحبه النزول ، ثم اتجه به إلى قصر الزمرد : وهو جزء من القصر الكبير ، يمتاز بحسن بنائه ، وجمال زخرفه ، وكثرة ما به من أعمدة الرخام الضخمة . دهش عمارة

لفخامة الأثاث وجماله : فالأبسطة الفارسية تغرق فيها الأرجل ، والستائر المذهبة تذهل العين من جمالها ، والأرائك والكراسىّ كلها من خشب الصندل والعود المضبّب بالذهب . المرصع بالجواهر الكريمة ، وقد فرشت بأنواع الحرير الثمينة ، والمخمْمَل والُخسرَوانى ، والديباج الملكى .

واتجه عمارة إلى يمينه ، فرأى حائطاً مغطّى بنسيج من الحرير الأزرق التسترى ، وقد طرز بالذهب ، وعليه صورة أقاليم الأرض ، وجبالها وبحارها ، ومدنها وأنهارها ومسالكها ، وفيه صورة مكة والمدينة ظاهرتين للناظر ، وقد كتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضّة أو الحرير . فاقترب عمارة من هذا المصوّر العظيم ، فرأى أنه كتب فى حافته « ممّا أمر بعمله المعزّ لدين الله ، شوقاً إلى حرم الله ، وتنويهاً بمعالم رسول الله . فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار » .

أما الستائر فكانت من الحرير الأخضر ، وعلى كل ستارة صورة لملك أو خليفة أو قائد لكل بلد من بلاد المسلمين ، وقد كتب تحت كل صورة اسمه ، ومدّة حياته ، ومجمل تاريخه .

بُهت عمارة لهذا الملك العظيم وهذا العز السامى ، وذلك الترف الذى بلغ الغاية وجاوز حدود الوهم والخيال. فلم يشعر بالجوارى الذاهبات هنا وهناك ، من روميَّات ، وصقلبيّات ، وتركيات ، وجركسيَّات. وقد زادتهن الملابس جمالاً ، أو زدن الملابس جمالا .

أصيب عمارة بالذهول أو بما يشبه الجنون ، وما شعر إلا براجح يرفع ستارة من الديباج المطرز باللؤلؤ ويقول له : تقدّم .

فتقدم عمارة ورفع بصره قليلاً ، فرأى سيدة القصور فى صدر البهو على كرسىّ مرتفع يشبه العروش ، وقد كان ما لمحه من جمالها فوق ما يصوره الشعراء ويجسّمه المثالون. خلقها الله لتكون فتنة للعيون وجوى للقلوب ، وحيرة للواصفين . هى جميلة كلها ، فإذا أخذتها قطعة قطعة كانت أروع وأجمل .

تقدم عمارة فقبَّل يدها ، ثم قبَّل طراز ثوبها ووقف مطرقاً خاشعاً. فأعجبت سيدة القصور بجميل طلعته ، واعتدال قامته ، وبما يبدو فى عينيه من صفات النّبل والرجولة . فمال إليه قلبها وخفق فؤادها ، وشعرت بقوة تجذبها إليه ، قد تكون ما يسميه الناس حبّاً. ولمّا رأت حيرته وارتباكه ، أرادت أن تخفف عنه ،

وتبسُط ما انقبض من نفسه فقالت : كيف أنت يا يمنيّ ؟ ؟ لعلّك رأيت فى « قاهرتنا » ما يُسليك عن « صنعاء » و « زبيد » ! فقال عمارة : يا مولاتى . إن الذى يعيش فى وارف ظلكم ، وعزيز كنفكم ، ينسى وطنه وأهله ولو كان فى صحراء قاحلة . فكيف والقاهرة بكم سيدة الحواضر ، ومدينة المدائن ؟ ! . . إن مصر يا مولاتى لم تَر منذ أن خفقت فوقها راية الإسلام ، دولة كهذه الدولة: قوّة ومنعة ، وعدلا ، وجوداً ، وإحساناً . وإن النّاس اليوم إذا أرادوا توكيد أيْمانهم ، لايقولون الا : « وحق سيدة القصور » ، فمن غير الفاطميين يا مولاتى نشر فى مصر الأمن ، واليسر ، والسرور ، والثروة ! ؟ حتى لو كان الفقر رجلا وسألنى عن صديق يصاحبه لقلت له : لن تجد يا صاحبي لك هنا رفيقاً ، ولكن عليك باليَمَن فإنك تجد هنالك أصدقاء بالألوف .

فابتسمت سيدة القصور ، وقالت : هذا دأبكم أيها الشعراء ، تَلْبِسون الحق بالباطل ! !

— إن وصف مصر فى أيامكم يا مولاتى يعجز الشعراء . وكلُّ ما يقال فيها دون ما يجب أن يقال .

ـ أنت لم تر الفاطمية فى ذروة مجدها ، أظنها الآن تسير بقوة من الماضى .

ـ يا مولاتى : الفاطمية بلك ، وبمولاى الخليفة دائماً فى ذروة مجدها .

ـ إن آمالى يا عمارة أبعد مما تناله يدى ، ولو استطعت لأعدت أيام « المعزّ » و « الحاكم » ولكنى أجد الطريق وعرة والمرمى بعيداً . وأنّى تستطيع امرأة ضعيفة مثلى أن تعمل شيئاً ، ودرعها الخمار وسيفها البكاء ، وعليها جرّ الذيول لا قيادة الجيوش ؟ ! . . إننى فى الحقّ سررت بمقدَمك ، لأن القصر كان فى حاجة إلى شاعر يذيع مآثره ، وينشر مفاخره ، وينقل صوته من الخاصة إلى العامة ، فيزيدهم بالخلافة تمسّكاً ، ولها نصراً وتأييداً .

ـ إن شعرى يا مولاتى سيكون جيشاً بجانب جيوشكم ، وسأكون لكم كما كان «حسّان» للمسلمين الأوّلين .

ـ حيّاك الله أبا محمد . . . هذا ما ترجوه منك الخلافة . إن الخليفة لا يزال صغير السنّ ، وأرى الأعداء يرمقون مصر من كل جانب : فالأفرنج نزلوا الشام وملكوا كثيراً من بلادها

وقد أصبح خطبهم شديداً . وهؤلاء الغُزّ الذين سرّوا مطامعهم في اغتصاب الأمم، بدعوى الغزو والجهاد في سبيل الله، والذين يقودهم نور الدين بن زَنكي يتحرّقون شوقاً إلى مصر، وإلى الارتواء من نيل مصر . وهذه الدّسائس التي تحاك هنا حولي في سراديب مظلمة في جنح الليل المظلم ، تنذر بالخراب والدّمار . فماذا تفعل امرأة ضعيفة مثلي يا شيخ في وسط هذه الزوابع والزعازع ؟! كان صوت الأميرة حزيناً متهدّجاً ، وقد فرّت دمعتان من عينيها أسرعت إلى مسحهما بمنديل في يدها . ثم كأنها أنفت من هذا الضعف النِّسْويّ ، فضربت بقدمها الأرض وقالت أريد أن أنقّي هذا الجو حتّى أستطيع أن أتنفّس . .. أريد أن أنام ملء عينيّ في قصور المعزّ ، من غير أن أشعر أن الكيد والخديعة والأعداء من الخارج ، تنقبها من قواعدها . . .

ــ إن قوّادك ووزراءك يا مولاتي طوع أمرك . والملك الصالح طلائع الذي قدِم بجيشه من « مُنية ابن خصيب » لنصرة الخلافة ، لا يزال كما كان للخلافة أميناً مخلصاً .

فظهرت على وجه الأميرة كُدرة خاطفة سريعة ، من الحقد والغضب لم يدركها عمارة ، وابتسمت وقالت : صدقت يا عمارة.

ما أعلمك بأخلاق الرجال ! ! . . إن ابن رزيك قِوام هذه الدولة وهو سيفها القاطع ورأيها النافذ . وإنى أسدّ أذنى عمّا يقول كثير من حسّاده، يقولون : إنه أرْمنّى اتخذ الإسلام ذريعة للدنيا لا للآخرة، واتّخذ المذهب الفاطمىّ ذريعة للملك . . قاتلهم الله فهم كذّابون أفّاكون ! ! لن تجد مصر رجلاً كابن رزيك، ولو كان للإخلاص والوفاء صورة لكانت ابن رزيك . أما « شاوَر » و « ضِرغام » فلا أعرف عنهما إلا أنهما كبيرا الآمال. ولعلّ هذه الآمال تتجه إلى إعزاز كلمة الخلافة ! !

ثم ضحكت وقالت : أتعبتك من الحديث فى شئون الدولة، وكلّ حديث فيها مملّ ثقيل. ما أجمل قصيدتك التى أنشدتها يوم استقبالك ! ! وأجملُ ما فيها :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمَها عقودمدح فماأرضى لكم كَلمِى

المعنى قديم مطروق يا أبا محمد، ولكنك أحسنت صياغته . فإيهِ بالله عليك أبا محمد . . . ادْنُ منى قليلا . . . مالى أراك مستوحشاً ؟ ! . . . انفُض عنك هذه الرهبة وحدّثنى كما تحدث الناس ، فقد سمعت أنك حلو الحديث ، عذب المحاضرة والمفاكهة . . . اسمع يا عمارة : أتريد أن نكون أصدقاء ؟ ؟

ــ تلك منزلة لو رأيتها فى المنام يا مولاتى ما صدّقتها . وأين الثريّا من يد المتناول ؟ !

ــ لا . صدّقها ونحن فى اليقظة لا فى المنام،وأمامك سيّدة القصور بنت الخلائف وملكة مصر .

فأكبّ عمارة على يديها ، فتركتهما له ، فاستمر طويلاً يغمرهما تقبيلاً ولثماً ، وقد أحس كهرباهما تسرى إلى جسمه ، فتملؤه نشوة وانتعاشاً ثم قال : أنا عبد مولاتى وخادمها . وإن قلمى ولسانى ، وسيفى ــ إن شاءت ــ ملك يمينها .

ــ لا . . أنت صديقى . ولكنناقبل أن نبنى هذهالصداقة ، يجب أن نجعل أساسها ميثاقاً مقدّساً ، وعهداً أكيداً .

ــ ألف عهد وألف ميثاق ، أبذلها تحت قدميك ، وأنثرها أمام هذا الجلال الرائع . . . ولولا رهبة الملك لقلت أمام هذا الجمال الفاتن . فابتسمت الأميرة وقالت : لم تطق أن تصبر لحظة عن شاعريتك فحننت إلى الغزل ، كما يحنّ الطائر إلى التغريد عند سفور الصّباح !

ــ يا مولاتى أنا شاعر . والشاعر ليس إلا مرجلاً يغلى بضروب الإحساس والوجدان ، فإذا لم يجد متنفساً انفجر وتحطّم .

إننا معاشرَ الشعراء نرى الصّور بعيون من الفن لا يبصر بها سوانا. (نرى الجمال فنذهب بخيالنا فى روضاته ، فيتكشّف لنا عن بدائع لا تراها العيون . . . نحن نعيش فى دنيا غير دنيا الناس ، ونفهم من أسرار الحسن غير ما يفهم الناس . إن الحسن أحياناً قد يتحدّى الشعر ، وقد يُعجز الخيال ، وقد يبهر العين كما بهرنى ، ولكنا لا نلقى أمامه السلاح أول مرّة ، ولا نستسلم خاضعين ، بل نأخذ فى إطلاق الشعر حوله رصيناً أو غير رصين ، مبيناً أو غير مبين ، ثم نصيح كما يصيح المحموم ، حتى نخفف من ثورة قلوبنا وإلا قتلنا الحب ، ورحنا شهداء النظرات الفاتكة ، والبسمات الفاتنة .

— قصيدة منثورة يا أبا محمد ! ! إن لبيانك سحراً عجيباً !

ثم تهانفت وقالت : نسينا العهد والميثاق .

— صوغى العهد يا سيدتى كما تشائين ، ولا تُبقى شيئاً من الأيْمان المحرجة ، فإنى أكرر بعدك كل ما تقولين .

— إن عهود الفاطميين ليست هيّنة يا عمارة ، فهى شديدة قاسية ووراء كل كلمة منها إسماعيلىّ فدائى ، يغمد سكينه فى قلب كل مَن نكث بها .

ـ إن دمي لك يا مولاتي . وهل أقول قلبي ؟ ؟

ـ قل ما تشاء .

ـ دمي ، وقلبي ، وحياتي لك يا مولاتي . فهاتي العهد ، وتشددي وثقي كيف شئت كما يوثق كتاب العقود .

ـ ولكني قبل العهد أريد أن أتحدث معك قليلاً . أتعلم أن أهل مصر تحولوا جميعاً إلى المذهب الفاطمي ، وأصبحوا من أشد الناس غيرة على نشره ، والمحافظة على تعاليمه ومراسمه . . . إنهم قوم يحبون البهجة ومظاهر السرور ، وحفلات الأنس والطرب ، وضجيج المواسم . وقد أكثرنا من ذلك لهم . . . أتعلم أن مواسم الفاطميين تزيد في السنة على ثلاثين موسماً ؟ ! هذا إلى ما يعمل في رمضان والعيدين من الحفلات الشائقة وضروب البذخ والإسراف . أتعلم أننا جعلنا سيف المعز وذهبه شعاراً لدولتنا ؟ ! أسمعت بقصة جدي المعز في أول اجتماع عام له بالقاهرة ، حينما طالبه ابن طباطبا نقيب الطالبيين في مصر بما يثبت نسبه وحسبه ؟ فنثر جدي الذهب على الناس ، وقال : هذا نسبي ! ! ثم جرد سيفه من غمده وصاح : وهذا حسبي ! ! ومن ذلك الحين أصبحت دولتنا تقوم على هاتين الكلمتين :

الذهب لمن أطاع وأصلح . والسيف لمن عصى وأفسد .

– هذا يا مولاى هو العز الباذخ ، والملك الشامخ ، فبأبناء فاطمة تتيه مصر ويسعد أهلها .

فمالت إليه الأميرة باسمة ، وقالت بصوت عذب النبرات :

– بعد هذا ، وبعد ما سمعتُ منك أبا محمد عن سماحة الفاطميّة وجودها وعدالة حكمها. أحبّ أن تكون فاطمياً .

– أنا فاطمىّ يا مولاتى . . . أحبّ فاطمة الزهراء ، وأحبّ علياً كرّم الله وجهه ، وأحب أولادهما ، وأعتقد أن حبّهم قُربى إلى الله وشفاعة .

– لا يا عمارة . . . لا تغالطنى بحقك . . . أنت تعلم ما أريده ولكنك تروغ روغان الثعلب ، ولولا ميل أحسّه نحوك ما طاولتك هذه المطاولة . ثم ظهرت فى وجهها شراسة النّمرة فقالت :

إن لمثلك عندنا إحدى خلّتين : إما أن يعتنق مذهبنا ، وإما أن تسيل نفسه على سيوفنا . . . أتريدنا الآن يا يمنى على أن نعود إلى الانحلال والتجاوز المميت؟ ! لا . . لا . . لا بد من إحداهما إما أن تكون فاطمياً ، وإما ألا توجد .

فارتعدت فرائص عمارة وقال فى تلعثم : فهمت من مولاتى أنها

لا تريد من الحياة إلا إعلاء المذهب الفاطمي ، وتثبيت أركانه. وفهمت أنها لهذه الغاية نفسها ، تدعونى إلى اعتناق المذهب . فما رأيك يا مولاتى فى أننا متفقان فى الغاية ؟! . . . متفقان تمام الاتفاق ! !.. سأكون خير عُدَّة فى نشر المذهب الفاطمى .. سأكون له لساناً ناطقاً وقلباً خافقاً .. سيكون شعرى أغنيته التى يطرب لها كل سمع ويتفتح لها كل قلب . . . سيحسدنى داعى دعاة المذهب على حسن ما أبليت فى إنهاض الفاطمية وإعلاء لوائها . . سيرى النقباء الاثنا عشر أنهم لم يعملوا شيئاً بجانبى . . سيردد الأطفال فى الحارات أناشيد الفاطمية ، وستغرد النساء فى بيوتهن بمجد الفاطمية ، وسيرى الأدباء والعلماء فى شعرى صوراً ساحرة بجمال الفاطمية وسماحتها . . . سأعمل كل هذا لأننى أحبّ مولاتى ، ولأننى رأيت من كريم وفادتكم ، وجزيل عطائكم ، وعميم إحسانكم إلى الناس ، ما بهرنى وملأ قلبى حباً لكم ولكل ما يتصل بكم . أمّا عقيدتى أنا . . . التى تنطوى عليها جوانحى ، فدعيها لى يا سيدتى .. دعيها بالله فإنها بقية ما يصلنى بأهلى الذين فقدتهم . . دعيها فإنها إرث الماضى البعيد . . دعيها فإنها جزء من نفسى . ثم وثب قائماً وفى وجهه شهامة العربى الكريم .

وقال : لن أغيّر عقيدتى ، ولو طلبت ذلك أجمل امرأة أظلتها السماء، وهى سيّدة القصور .

— اهدأ أبا محمد .

— يا مولاتى . إنى أعتقد أننى لو غيّرت عقيدتى أوّل ما تطلبين منّى، لهزئت بى وسخرت منى ، وقلت فى نفسك : تعْساً له من رجل سقيم الإرادة هزيل العزيمة ! ! ثم هبينى كنت رجلاً إمّعاً لا خلق له ولا عزم ولا دين ، أتظنين أن ذلك يقربك من غايتك ؟ ! لا . سيضحك الناس منّى فى أكمامهم إذا ناديت فيهم بفضل الفاطميّة، ويقولون: يا له من شقىّ أفّاق منافق مأجور ! ! اشترت منه الخلافةُ عقيدته بدراهم معدودة ، فجاء يدعونا إلى الحرص على مذهبها ! وربما همس أحدهم فى أذنى بخبث وشماته قائلاً : إنّ رجلا يفرّط فى مذهبه ، أولى به أن يتوارى عن الناس ، وألاّ يحثّهم على التمسك بمذهبهم . ثم إنّ الوفاء أظهر خلائقى ، وأقوى شيمى . فإذا لم أفِ لعقيدتى فأجدر بى ألاّ أفى لمخلوق . . . سأعيش للوفاء ، وسأموت للوفاء ، ولن يقول إنسان : إن ابن علىّ خان عهداً أو أخفر ذمّة .

فانبسطت أسارير سيّدة القصور وقالت : أحسنت أبا

محمد. إن هذا البيان وهذا الفكر الواسع لا تستغنى عنهما الفاطميّة.

ــ اطمئنى يا مولاتى ، فسأكون لك عوناً ، ولمذهبك سيفاً ودرعاً ، وسأكون فاطميًّا بلسانى ، سنيًّا بقلبى . فماذا تريدين منّى فوق هذا ؟ ؟

ــ أكتفيت أبا محمد . فإن لروعة منطقك ، إلى وسامة طلعتك ، إلى كريم خلقك وكمال رجولتك ــ سحراً وفتنة . أيُرضيك هذا الإطراء أبا محمد من امرأة كانت تظن أن الأرض أقفرت من الرجال حتى رأتك ؟ ؟

فوثب عمارة على يديها يقبّلهما ، ويرتفع بفيه قليلا قليلا حتى يصل إلى معصميها . ثم قال : أيرضينى يا مولاتى ؟ ! أنا لا أدرى : أأنا فوق الأرض ، أم سابح فوق السحاب ؟ !

ــ لا . . . لا تعد إلى شاعريّتك . أنت معى هنا فى قصر الزمرّد . . هلمّ إلى العهد. فتنهّد عمارة وقال : هاتى يا سيدتى . هاتى . . . فأخرجت سيّدة القصور ورقة من منديلها ، وأخذت تتلو وهو يُعيد : « أقسم وأحلف بالله المنتقم القاهر ، وبرسوله الكريم ، وبوصيّه ووليّه ، وببنته الزهراء سيدة نساء أهل الجنة ، وبكريم نسلها وشريف عترتها . على أن أكون للفاطمية عوناً ولها

ناصراً ، ولدولتها مؤيِّداً . وعلى أن أعاضد أولياءها ، وأحارب أعداءها ، وأتّخذ كل وسيلة ، وكل أداة ، وكل ذريعة لرفع شأنها ، وإماطة الضّرّ عنها . وعلى أن يكون دمى ، وشرفى ، ومالى ، هدراً مباحاً إن أنا خنت لها عهداً ، أو نكثت بوعد ، أو توانيت عن وفاء . »

وبعد حلِف اليمين كان جبين عمارة يتصببُ عرقاً . فرفع عينيه وقال : بقيت مسألة يا سيدتى ، وهى أنى شاعر ، وقد أمدح قوماً تضمرين لهم سوءاً ، فهل ذلك ضائرى عندك ؟ ؟

— لا يا عمارة ، أيِّد بمدحك من تشاء منا ، واخدع بمدحك مَن تشاء من غيرنا ، ولا تخش شرّاً فأنت موضع ثقتى . . هلم إلى الطعام والشراب .

ثم قامت سيِّدة القصور إلى بهو آخر ، أعدّت فيه مائدة ملكية يحيِّر وصفها الألباب . وبعد الطعام تقدمته الأميرة إلى بهو الأغانى ، وقد كانت الجوارى أعددْن آلات الطرب .

فجلست الأميرة ، وجلس عمارة بعيداً ، وجلست إلى جانب الأميرة جاريتها « باسمة » وهى جارية جركسية بارعة الحسن ، رائعة الطلعة ، تفور فيها الأنوثة ، وتصطخب فى نفسها ثورات الشباب . لمحت عمارة ، فرأت فيه محيًّا عربيًّا ، ووجهاً صبيحاً ،

وقامة فارعة . فاضطرب له فؤادها ، وأخذت تخالسه النظر ، وتتحين الفرصة لمحادثته واجتذابه . واستمر الطرب إلى الهزيع الأخير من الليل . حينئذ وقفت الأميرة وسلّمت على عمارة ، وهمست فى أذنه : سأرسل إليك راجحاً فى كل ّ ثلاثاء . ثم أمرت « باسمة » أن تسير معه إلى الباب الكبير ، وأن تأمر راجحاً أن يصحبه إلى داره .

فسارت «باسمة» معه من سلّم إلى سلّم ، ومن بهو إلى بهو ، وقد جاذبته الحديث طويلا فى هذه الأثناء ، ورمت إليه بكثير من شباكها ، وألقت إلى قلبه بالمجرَّب النافع من سحرها . ولكن عمارة كان عنها وعن فنونها فى شغل شاغل ، فلم يقابلها إلا بالصدّ والعبوس. فحزنت « باسمة » ولكنها لم تيأس ، وقالت فى نفسها : ويل لهذا المهر الحرون منى ! ! سيأتى إلىّ خاضعاً ، وسيلقى عنانه بين يدىّ ذلولا . ثم قابلا راجحاً فودعته « باسمة » وانصرفت . فركب عمارة وراجح جواديهما ، وإذ هما يخرجان إلى الطريق سمع عمارة مؤذن الصبح ، من مئذنة الجامع الأقمر ، وهو يردد بصوت رنان : حىّ على خير العمل ! ! ... حىّ على خير العمل ! !

٨

أقام عمارة بالقاهرة طويلا فى عزّ وثروة وهدوء بال ، وكان يستدعيه راجح فى كل أسبوع للقاء الأميرة، فزاد هُيامه بها ، وبجودها وذكائها ، وحرصها على حياطة الدولة. وكانت « باسمة » فى كل زيارة تغازله وتحتال على أن تُصْبيه ، فيصرفها عنه فى تعفّف واستنكار .

وبينما كانت تودعه إلى باب القصر فى بعض زوراته، دخلت به إلى إحدى الحجرات، وسألته فى رشاقة تستنزل العُصْم ، وفى دلال يلين الصخور الصُّم أن يكتب لها بعض أبيات رقيقة قالها فى الغزل. وكانت تحدثه وهى ترفع خُصله متهدلة من شعرها الذهبى اللماح، وتصوب إليه عينيها فى ضعف وفتور ، يوقظ الفتنة النائمة ، ويثير العاطفة الخامدة . والجمال يستعين دائماً بقوته إذا ملك، وبضعفه إذا حاول أن يملك . والجمال الهادئ المستكين أقوى أنواع الجمال تحكماً فى قلوب الرجال . وهو

أحبولة المرأة، وأداة وثوبها، ودرع دفاعها . عرفت المرأة بفطرتها الصادقة، وغريزتها النافذة ، ما فى الرجل من غرور وكبرياء ، واعتزاز بحوله وطوله . فهى دائماً تأتيه من هذه الناحية، فتتوسل بضعفها إلى قوته، وبأنوثتها إلى رجولته ، وبلينها إلى خشونته ، وبأنها تريد أن تتخذ من قلبه حصناً تلجأ إليه من عواصف الأيام، ومن عطفه حمى تلوذ به من أعاصير الحياة . ثم تبعث بجمالها الوادع الذليل شفيعاً إليه ، فلا يزال به حتى يجتذب عطفه ، ويستهوى حنانه — والحنان أول مراتب الحب، والإشفاق أول مراحل الغرام — حتى إذا فازت بعطفه ، أخذت فى إغرائه بالإيحاء ، وبأساليب يعرفها النساء وحدهن : أساليب كأنها غير مقصودة ، وهى مقصودة . وكأنها من المصادفات ، وليست من المصادفات ، وكأنها تصدر على الرغم منهن ، وليست إلا من قصدهن . وهنا يقع الرجل فى الشرك ، وهنا يتغلب الحب ، وهنا تتحكم المرأة، وهنا يعود ذلك الضعف المتصنع قوة وجبروتا ! !

قالت « باسمة » : إنها ليست أبياتاً يا سيدى . إنها همسات الحب فى أذن العاشق المهجور . أتعرف أننى كلما سمعت « طروب » تغنيها لم أملك دموعى ! !

إن الشعراء يجتذبون المرأة بمثل هذا الشعر الذى لا يخطىء سبيله إلى القلوب، فإذا اهتزّت مشاعرها له جاء الحياء فكتّم ما تحسّ به ودفنه بين جوانحها حياً ، لا لشىء إلا لأنها امرأة يجب ألا تتكلم ، ويجب ألا ينم وجهها إلا عن السخرية بالغزل وأغانى الغرام . أما الرجل فمباح له أن يبوح بما فى نفسه . ومباح له أن يُغرى من يشاء بما شاء. ولقد يكون خداعاً، ولقد يكون ماجناً عربيداً، يلهو بقلوب الحسان كما يلهو الطفل بلُعبه، حتى إذا سئمها داسها بقدميه ، وتركها حُطاماً .

ليس للمرأة المسكينة أن تقول : أحبُّ . وليس لها أن تجيب عن ابتسامة بابتسامة ، ولا عن زفرة بزفرة . وإنما عليها أن تصرف وجهها عن مائدة الحب ، ونفسُها تشتهى كلّ ما عليها من ألوان ، لأنها صنم من جمال ، وتمثال من حسن ، لا يتكلم ولا يريد . فإذا ضحكت أحياناً ضحكة فيها رنين ، أو أنزلق لسانها بكلمة تصور خلجة من خلجات النفس الحائرة ، أو أدلت برأى فى معنى الحسن ــ سلقتها الألسنة ، وحملقت نحوها العيون ، وترحّم الناس على الحياء والفضيلة ، وهزّت العجائز رءوسهن فى رعب ودهشة ، وبكين ماضى أيامهن ، حين كانت البنت

تُرى ولا تسمع ، ثم ينتقلن بالحديث إلى فساد الزمان ، واضطراب الأوضاع ، وضياع آداب السّلف .

ويا ويل الشّباب من المشيب ! ! فإنه حينما يرى أنه تسلّب من القوة ، وماتت فيه غرائز اللهو ، وقعدت به السن عن الاستمتاع بلذائذ الحياة — يمتلىء صدره على الشباب حقدا ، وتغلى نفسه منه غيظاً ، ويرميه بالجنون والطيش ، وتمزيق ستار الأدب ، وتمريغ الفضيلة فى التراب . ولو أن شيخاً هبّ من نومه ، فأحسّ بالشباب وقد عاد إليه ، والفتوة وقد تمشت فى عروقه الواهنة الذابلة ، ونظر فى المرآة فرأى شيبه وقد ارتدّ سواداً ، ووجهه وقد صقله الصبا ومحا منه الغضون — لغيّر رأيه فى الفضيلة وكان أوسع أفقاً ، وأكثر تسامحاً ، وأسرع إلى داعى اللهو استجابة ، ولضحك مما كان يراه بالأمس من وجوب التحرّج والتزمّت ، والابتعاد عن التمتع بزينة الله التى أخرج لعباده.

— هذا صحيح يا فتاة . ولكن مالك تعذبين نفسك بهذا التفكير الذى لا يجرّ إليك إلا الحزن والبلبال ؟!

— إننى يا سيدى لم أخلُق نفسى . ولو خيّرت لاستبدلت بهذه النفس التى أشقى بها نفساً جامدة بلهاء ، لا تشعر بالمعانى

السامية ، ولا تهتزّ للجمال الروحيّ الذى فيه غذاؤها وريّها وحياتها . أنا يا سيدى فتاة منكوبة ، أعيش حبيسة فى هذا القصر ، بين سادة يسومونى الذل والخسْف ؛ لأننى فى أعينهم أمَة اشترَوها بمالهم ، واشترَوْا معها فى زعمهم كل مافيها من حس وإدراك وشعور . فيجب ألاّ تحِس وألا تدرك وألا تشعر ، وبين خدم يحسدوننى على منزلتى من سيدة القصور ، ويدبّرون لى المكايد وينصبون الحبائل . أرايت يا سيّدى أسوأ من هذه الحال ؟ ! أمَة ذليلة محسودة . أمَة تضطهد فى ضوء النهار ، وتحاك لها الدسائس فى ظلمة الليل .

أمَة . . .؟ وهل أنا أمَة . . . ؟ ! ولكنهم أماتوا روحى ، وقتلوا ما كان فى نفسى من عزّة ، فلن أستطيع أن أتكلم ! !

— إنى أتألم لألمك يا فتاتى . تكلمى ... تكلمى . . . فلن يُزيح عن النفس أحزانها إلا البوْح والبكاء .

— لك يا سيدى أبوح . ولمثلك أشكو ، فإن لك قلباً لا يضيق بفتاة بائسة مثلى ، تلتجىء إلى ركن فيه لتعتصم من ويلات الزمان .

أنا لست أمَة أبا محمد . إن لى قصة تستنزف ماء الشئون ،

وتثير لواعج الشجون . ولكن لسانى لم ينبس بها لأحد . وماذا فى أن تكشف ذات نفسك لقوم لا يلقَوْنك إلا بالسخرية والتكذيب والمراء ! أنا لست أمة ، ولكن أبى كان حاكماً ببلاد الجركس ، ولم يكن له من ولد غيرى . وكنت ريحانة حياته ، وفِلذة كبده ، وحبّة قلبه. وكان بى مشغوفاً ، وبحبى كَلِفاً . وكان أبى شديداً فى مطاردة اللصوص ، مستقصياً لهم ، صارماً فى عقوبتهم. فقبض مرّة على زعيم من زعمائهم فأذاقه صنوف العذاب ، ثم وَسَّطه فى ميدان المدينة. ويظهر أن أحد رجاله أراد أن ينتقم له ، فرأى أن أشد ما ينتقم به منه أن يختطف ابنته ، وأن يذيقه لوعة فقدها ـــ فخُطِفت فى السابعة من عمرى ، ونُقلت إلى الشام فى بيت نخّاس ، كان يحفّنى بعناية فائقة ، ويشملنى بعطف سابغ ، ويدللنى تدليل الأب الشفيق . وقد أحضر لى عجوزاً كانت تختلط بنساء الأكابر ، لتلقننى آداب السلوك ، وآيين القصور . وكنت وأنا بين هذا الترف الكاذب والنعيم الزائف ، أسكب الدمع فى خلواتى مدراراً ، وأكاد أبخع نفسى على أهلى حزناً .

وقد أقمت عند صاحبى طويلا حتى بلغت مبلغ الأنوثة

الكاملة ، وتفتَّحت فيّ أكمام الشباب الناضج ، وأظهرتْ منى الخامسة عشرة مكنون الجمال ، ومستور الفتنة . وإذا كان الشّباب جمالا ، فأجمل منه أن يكون جميلا . وكلما تبلج حُسنى زاد صاحبي بى حفاوة ولى إكراماً . وذاع فى دمشق أن لدى حسين الدفانى النخاس فتاة لم تحو قصور الملوك مثلها ، فتزاحم على بابه سماسرة العبيد والجوارى ، يُغرونه ببيعى ، ويزيدون له فى ثمنى بالمئات من الدنانير . وكان الرجل يقابل إسرافهم فى العرض بإسراف فى الإباء . وكنت فى أثناء هذه الضجة وهذه المغالاة بقدرى ، لايفارقنى خيال أبى ، ولاتنأى عنّى ذكراه . وكان قلبي بالحنين إليه خفاقاً ، وبالشوق إليه دائم الوجيب ، حتى زارتنا فى عصر يوم امرأة من بلاد الجركس ، فجاذبتها أطراف الأحاديث ، ثم انفلتُّ فى حذق ولباقة إلى السؤال عن أحوال البلاد وعادات أهلها ، كأنى لا أعرف من أمرها شيئاً . فانطلقت المرأة فى القول ، وأسهبت فيما يصيب البلاد من فوضى ، وما فيها من عصابات ضارية ، مَرَدت على اختطاف البنات وبيعهن فى أسواق الرقيق . وعلمت منها أنّ أبى بعد أن نُكب فى ابنته ، برّح به الحزن فمات كمداً . حينئذ يئست من الحياة ، وعرفت أنى

خلقت للذّل والمهانة ، وأن هذه الحلى التى تزيّن معصمى وصدرى ، والحرائر الثمينة التى أرتديها ، إنما هى من عبث القدر وأضاحيكه . وأنها أشبه بزخرف القبور ، منها بزينة فتاة تستقبل الحياة .

ثم جاء والى دمشق ذات صباح ، وطلب من صاحبى أن يسافر بى إلى مصر ، ليبيعنى لسيّدة القصور ، على أن يتحكّم فى الثمن كما يشاء . فسافرنا إلى القاهرة ، وعُرضت على سيدة القصور ، وكان العرض مؤلماً . . . ثم سئلت عن اسمى ، فأطرقت وتبسمت ابتسامة حزينة واجدة ، فصاحت سيدة القصور : سميتها « باسمة » ، ثم طلبت إلى الخدم والجوارى أن يدعونى بهذا الأسم ، فبقيت فى القصر منذ ذلك الحين أعامل معاملة الدُمَى حيناً ، ومعاملة الإماء الذليلات أحياناً . ارحمنى يا سيدى . . . ارحمنى . . . فإننى أتحرّق إلى صدر رفيق يجيب خفقات قلبى ، وأشعر فى دفئه بالحب والحنان .

— يحزننى يا فتاتى أنك طرقت قلباً مشغولاً ، ملأ الحب كل حُجُراته فلم يترك فيه مكاناً لحب جديد .

— لك ألا تسمى ما أدعو إليه حباً ، سمّه عطفاً إن شئت .

ـ إن العطف أول الحبّ . وإذا رضيتِ بالعطف أولَ الأمر ، فلن ترضىْ به إذا طال الزمان. إن قلبي يا فتاتى موحِّد لا يؤمن بالشريك .

ـ لقد حرمتُ يا حبيبي حب الأب ، وحبّ الصديق ، وأريد أن أعيش إنسانة تجتذب الحبيبَ ويجتذبها الحبيب ، تُصبي الحسن وتصبو إليه. إننى من جيل تعنُف فيه الغرائز وتشتد، وتسيطر فيه نزعات القلب على حكمة العقول . أريد يا حبيبي أن أحيا ساعة واحدة أشعر فيها أننى لست أمَة رقيقة ! !

ـ أليس لك فى زوجك يا باسمة ملاذ يسكن إليه قلبك ، وتهدأ فى كنفه جوانحك ؟

ـ زوجى ؟ لا تمزح يا سيدى ! بالله عليك لا تمزح ! إنه ناطور الزّواج كما يضعون فى البستان ناطوراً ليذود الطير عن ثمره. زوجى ؟ ! ذلك الذى أرغمتنى سيدتى على التزوجَ به ، لتصوننى من رجال القصر الذين كادوا يفترسوننى بأعينهم ، والذين كانوا يلاحقوننى فى كل مَكان . ومن هو الذى ألزمت الزواجَ به ؟ فَدْم ، جاهل، مغفّل، غبى متعاقل، سريع الغضب ، بطىء الهمة . هذا هو الزوج الذى اختارته لى سيدتى ، واختيارُها وحى

من الرحمن يجب ألاّ يردّ ، ولا يجادَل فيه، ولا يسائل المرء نفسه عن سرّه ! فهل لى فى أن أطمع فى عطفة منك تضىء ظلام حياتى ! ؟

ـ لا أكاد أفهمك يا باسمة ، ولا أكاد أفهم معنى لهذا التشبّث بعد ما ظهرتُ لك من الانصراف عن كل ما يسميه الناس حبًّا. وقد أكرمتنى سيدة القصور بحفاوة لم يظفَر بها سواى ، وليس من شيمى أن أعبث بهذه الكرامة .

ـ أنت تحبّ سيدة القصور ، وتؤثر حبّ السيدة على حبّ الجارية ! لأنك تظن أن حبّ السيدات سيد الحب !

فظهر الغضب على وجه عمارة . وصاح :

ـ كفى يا جارية . فإن سيدة مصر أقدس من أن تصبح حديثاً للاماء ! ! ولقد صبرت على ثرثرتك طويلاً ، وتركت نار قلبك تأكل حطبها لتنطفىء . ولكن يبدو لى أن الرفق زادها استشراء ، وأضاف إلى جذوتها حطباً . اعزِبى عنى فقد طال بنا المقام ، وأخشى أن ينالنى من الجلوس إليك أشنع المكروه .

ـ أعزُب عنك بعد أن كشفتُ لك عن ذات نفسى ، وفضحت لك خبيئة صدرى ؟ ! بعد أن طرحتُ حبِّى على

أقدامك فقذفتَ به كما تقذف النّعل الخلَق؟! وبعد أن سكبتُ دموعي على قلبك الصّلد فما زاده الماء إلا صلابة ويُبساً ؟! أعزب عنك بعد أن أهنتَ أنوثتي ، ودست بقدمك على أشرف ما أعتزّ به وتعتز به كل امرأة من حياء وخفر وإباء؟ ويل لك مني! إن كل شيء عندنا — معشر النساء — أممٌ، إلا أن تُجرحَ المرأة في كرامتها ، وإلا أن تقدم جمالها الفاتن بخلْف مثلك ، فينحيّه عنه بالأكفّ في سخط وأنفة ، كأنه كأس مسمومة أو طعام ولَغت فيه الكلاب ! ويل لك مني ، وويل لكل من يناصرك ! لن تفلت من حبائلي ! إننا — بنات الحركس — نقتل الرجال : إما بالحب والاستهواء ، وإما بالكيد والدهاء ! فخذ حِذرك فإنك لن تنجو مني يا رجل ! ثم قامت غاضبة وتركت عمارة في ذهول وعَجب ، وهو يتطلع في أنحاء الحجرة كالمشدوه المأخوذ ، ثم ضحك ضحكة جافة مضطربة ، وضرب كفاً بكفّ وقال : حقًّا إنّ مصر بلد العجائب ! ! ماذا كان شأني بهذه الفتاة ؟ ومن رماني بهذه المجنونة ؟ إنها ستكون البعوضة التي تُدمي مهجة الأسد، وستعمل على تكدير عيشي وتنغيص حياتي ، وربما أشعلت بيني وبين سيدة القصور فتنة لا أستطيع لها إطفاء،

وربما نشرت بين رجال القصر أسرار حبّ قدسيّ أبالغ فى كتمانه. أكان يجب أن أجاريها وأن أخدعها ، وأن أظهر لها كالمحب المفتون بها المدلّه بجمالها ؟ لا . إن شيئاً من ذلك أو دونه، لو ظهر لأفسد ما بينى وبين سيدة القصور. ماذا أعمل؟ إنى بالغت فى اتقاء دسائس الرجال ، ولم أحسب لدسائس النساء حساباً . إنّ من ضروب العداوة ما لا يستطاع درؤه ، وإن من المصائب أن يكون عدوك ضعيفاً ؛ ولكنى سأدّرع بالحذر ثم يكون بعد ذلك ما يكون . وقام وصدره مثقول بالهموم ، ثم غادر القصر .

وفى تلك اللحظة التقى ابن دخان بباسمة فى أحد أبهاء القصر وكان لها عاشقاً وبها صبّاً مفتوناً ، وكانت تصدُّ عنه فى إغراء، ثم تجتذبه لتعرض عنه من جديد، وهى فى قرارة نفسها تنفِر منه وتستنكر تصابيه وطرائق غزله . فلما اقترب منها قال :

ــ كيف أنت اليوم يا نور عينى ؟ ألا تزالين فى دلالك القديم ؟ !

ــ كما أنك لا تزال فى ضلالك القديم . دعنى بالله أسِر فى طريقى ، فإنى كرهت الدنيا ومن فيها ! !

ــ الدنيا بخير يا جنّتى ، والرواتب تصرف فى كل شهر

بلجوارى القصر ، وفوق كل راتب قُبلة إلا منك ، فقد أعيتنى فيك الحيَل !

— أنت رجل فارغ القلب ، لاتأبه إلاّ للرواتب ودخْل الدولة وخرْجها . أما ما يصيب صديقاً ، أو يمسّ شرف فتاة ضعيفة فقدت الحامى والنصير ، فليس من شأنك فى قليل أو كثير ! ! إننى سأغادر القصر إلى الأبد . إن هذا اليمنى الأفاق المسمى بعمارة ، أطغته منزلته عند سيدة القصور ، فاتخذ عطفها عليه سلاحاً للعربدة والفجور . لقد ضقت بهذا الرجل ذرعاً ، إنه يلاحقنى إينما رآنى فى القصر ، ويضايقنى بإلحاحه وتغزله السمج ، ويريد أن يفرض علىّ حبه فرضاً ، ويظن المغرور أن الله اختصّه برُواء الحسن وكمال الظَّرف ، وأن امرأة لا تهيم به مدخولة العقل فاسدة الحس . قابلنى فى هذا الصباح فحاولت الفرار منه فلم أستطع ، وأخذ يصب علىّ شُواظاً من غزله المفضوح . فلما زجرته وسخرت منه احتدم غضبه وتكشّف لؤمه ، وتوعّدنى بالشر والإيقاع بى عند سيدة القصور وبطردى من القصر ! !

— طردك أنت من القصر ؟ ! . . . أنت . . . وماذا يبقى

فيه إذا غابت شمسه ؟ ! ماذا يبقى فيه وأنت بهجته وزينته ؟ !
ولكن هذا اليمنى الثقيل الوقح ، هو الذى يطرد من القصر ، ويزجر منه كما يزجر الكلب .

— إن سيدتى متعلّقة به . . .

— ومن هذه الناحية ستأتيه النكبه . دعى هذا الأمر لى بنيّة، فلن يضايقك اليمنىّ الأحمق بعد اليوم .

— وكيف ؟

— سأفكر ، وستكون المؤامرة محكمة لا يجد منها اليمنى منفذاً ، ولكنى أطلب أن تزيدى فى التودّد إلى زوجك ؛ فإنى أعتمد عليه فى مثل هذه الأمور . وكيف حالك معه ؟

— إنه زوج شرعىّ وكفى !

— لا يا باسمة . . . صانعيه واخدعيه ، وأظهرى له الحبّ والميل حتى يتم كل شىء .

فظهر الابتهاج على وجه باسمة ... ولكن ابن دخان عاجلها قائلا : ولكنى أطلب أجراً على هذا العمل المحفوف بالمخاطر .

— ما هو ؟

— قُبلة واحدة من فمك الحلو .

– قبلت على أن يؤجل هذا الأجر الى أجل غير بعيد.

ثم فرّت من بين يديه كالظبي النافر ، وذهبت الى مسكنها الخاص بالقصر . ولمّا رأت زوجها مجاهداً الرملي ألقت بنفسها بين ذراعيه ضاحكة معربدة، عابثة بشاربه ولحيته . فدهش « مجاهد » لهذا التغيّر المفاجىء، وقد كانت منه شديدة النّفار ، ممعنة فى الدّلال، فما استطاع إلا أن يضمّها ضمة العاشق المهجور، ويملأ وجهها بقبلاته ، ثم قال : ما هذه النّشوة يا باسمة ؟ فقالت: هل على فتاة فى أن تحب زوجها من حرج؟

– لا . غير أنه حبّ مرتجل !

– إنه ليس مرتجلا يا مجاهد . إن العجائز – قاتلهن الله – علّمننى أن الرجل لا يحب إلا اذا جفته المرأة وتمنّعت عليه وقد أخذت أعمل بنصيحتهن ، وأظهر لك النفور والبغض ؛ لتزيد بى شغفاً ، حتى لم أعد أقوى على هذا الرياء ، وعزّنى الصبر ووهن الجلد ، وطغى سلطان حبك على قلبى فلم أستطع له كتماناً . . . فارحمنى يا حبيبى !

– أرحمك ؟ أرحمك بمائة قُبلة وألف ضمّة، وبأن أكون لك عبداً مدى حياتى ؟

ـ وأن تدفع عنى شرّ الأشرار وكيد الكائدين !

ـ بروحى . . .

ـ إننى لم أرد أن أخبرك منذ حين بشأن هذا الشيخ اليمنى نزيل القاهرة ، الذى أخذ يتردد على القصر .

ـ ما شأنه ؟

ـ شأنه أنه أخذ يضايق زوجتك ، ويبالغ فى احتقارها ، ويدسّ لها عند سيدة القصور . وقد اتفقت مع ابن دخان على إبعاده عن القصر ، وسيخبرك إذا قابلته بكل شىء . وستكون هناك مكافأة جزيلة لمن يقوم بهذا الأمر .

ـ عظيم ، كسبنا مالاً ، واسترجعنا رضاء زوجة رائعة الحسن فى صفقة واحدة .

ثم مرّت أيام قضاها ابن دخان فى تدبير المؤامرة واختيار من يشترك فيها وعُقدت عدة مجالس حضرها مجاهد الرملى وبعض الجنود، وأكّد ابن دخان لهم أنهم لن يصيبهم منها ضرر البتة ، وأنهم على الضدّ من ذلك سينالون رضاء سيدة القصور ، وترتفع عندها منزلتهم . والتقت باسمة به يوماً ، فقصّ عليها المؤامرة مفصّلة ، ووكل إلى دهائها وحذقها طريق الشروع فيها ،

والإفضاء بها الى سيدة القصور ، ثم قال : إنها ليس من صنعي يا باسمة ، وان عقلي لا يستطيع أن يصل الى هذه الغَيابة .

فقالت في استنكار : من صنع مَن إذاً ؟ وهل كان من الحزم أن يطلع عليها غير ذلك العدد القليل الذى اشترك فيها ؟ !

— إن الذى وضع المؤامرة أشد مني حزماً ، وأكثر احتراساً ، لأنه لم يرض أن يمد فيها إصبعاً إلا بعد أن حلفت له بكل محرِجة ألا أبوح باسمه .

فنظرت اليه في سحر وفتنة وقالت : حتى ولا للمدينة لك بقُبلة ؟ فانهزمت في الرجل كل خصائص الرجولة وقال : أنا حلفت ، ولكن القبلة تعدل آلافاً من كفارة اليمين .. . تعدل الدنيا وما فيها . اعلمي يا فتاتي (وفقك الله) أن مدبر المؤامرة هو الشيخ زين الدين بن نجا المشرف على خزائن الكتب .

— ذلك الشيخ الورع الزاهد ، الذى لا يبتسم ! والذى كلما رآني همهم بأدعية واستغاثات ، كأنما رؤية الجمال إثم من أشد الآثام ! !

ثم انطلقت باسمة إلى القصر ، فرأت سيدة القصور تقرأ بعض الصحف التي يرسلها إليها جواسيسها كل صباح ، فلما

رأتها قالت : أين كنت يا باسمة ؟ ولم أراك عابسة حزينة ؟

— إن حبك يا مولاتى ، والخوف من أن تمسك هبة من نسيم ، هما اللذان يشغلان قلبي ويكدران صفوى .

— فقهقهت سيدة القصور وقالت : لا تتعبي رأسك الجميل يا فتاة ، ولا تجنى على جمالك الفتان بالخوف على ، فإنك إن فعلت أذبلت أجمل زهرة بالبستان الكافورى . ما الخبر ؟

— لا شيء . أو هو شيء يكفى فيه التحرز والاحتراس .

— أى احتراس ؟ ومن أى شيء ؟

عند ذلك استنجدت « باسمة » بأدق مواهبها وأروع أفانينها ، وأخذت فى الحديث فى تحرج وتلعثم ، وكان صدرها يخفق ، وعيناها تتحير فيهما الدموع ، وصوتها يرتعد . . . ثم قصت على سيدتها ما اتفقت عليه مع ابن دخان من تفصيل المؤامرة المزعومة وأن عمارة ، الذى يبغض المذهب الفاطمى بقلبه ، ويناصره بلسانه — إنما استدعاه طلائع بن رزيك من مكة ، ليكون آلته فى الكيد للدولة والقضاء على الفاطمية ، وأنه قد تآمر مع بعض الجند على اغتيال الخليفة الفائز ، والقضاء على سيدة القصور ، وإجلاس ابن رزيك على عرش مصر .

— من الذى كشف عن هذه المؤامرة ؟

— إبراهيم بن دخان .

— هذا غير معقول يا فتاة . إن عمارة عاهدنى ألا يخوننى ، ثم إن فى الرجل صفات تأبى عليه أن ينغمس فى هذه الحمأة .

— إنه داهية يا سيدتى ، وهو يتخذ من سحر شعره ولطف حديثه ، وظهوره بمظهر الرجولة والنخوة ، ستاراً يخفى به مكره ومحاله .

— أنا لا أكاد أصدق . عمارة ؟ ! . . يدسّ لى ؟ ! ويعمل على قتلى وتقويض ملكى . . ؟ ! لا . . لا . . هذا إذا عاد الصباح ظلاماً ، والأسد ثعلباً ، والدواء سمًّا زُعافاً . . .

أأنت واثقة يا باسمة ؟

— تمام الوثوق . وقد كان من أسباب حزنى خوفى من أن تماريني وتنفضى عنك الحذر ، والقضاء على الجريمة والمجرمين .

— قد يكون ، إن هؤلاء الغرباء الذين يفدون على مصر ، لا تخلو حقائبهم من دسائس ومؤامرات ، إذاً فمبالغته فى التقرب إلىّ والإخلاص لعرشى كانت رياءً فى رياء .

— لولم يكن الرجل دسّاساً ما لفظته بلاده ، وهو يدّعى أن

له فيها الأموال والأتباع والجاه العريض .

ـــ هذا صحيح ، دعيني وحدى قليلا يا فتاة ، فإنى أريد أن أفكر .

وبعد ساعة أو ساعتين ، أمرت راجحاً أن يدعو إليها ابن دخان ، فلما دخل أنكبَّ يقبّل أطراف قدميها ، ثم وقف مطرقاً واجماً وهو فى سمت الخدام المخلصين . فسألته سيدة القصور عن مجمل الخبر ، فقال : جاءنى خادمى « عيد » السّودانى يوماً ، وعليه آثار الخوف والاضطراب ، وفى وجهه لمحات من التردد والحيرة ، فسألته عن شأنه ؟ فراوغ وتلعثم ، فلما أثقلت عليه قال : إننا جميعاً عزمنا على أن نلقى إليك جملة الخبر ، فانتظرْنى حتى أعود . ثم عاد ومعه من الجنود : عمران النّهرى، وعكاشة الحدّاد ، ومجاهد الرملى، فأخبرونى أن عمارة أغراهم بالمال ، ووعدهم بالمناصب ، وذهب معهم إلى قصر ابن رزّيك ، فزادهم هذا إغراءً ، وأقسموا أمامه على قتل سيدى الخليفة ومولاتى . ولكنهم بعد أن وُزعت عليهم الأموال خارت عزائمهم ، وعاودهم إخلاصهم المكين للخليفة ولمولاتى ، ورأوا ـــ كما قالوا ـــ أن خزائن الدنيا جميعاً لا تغرى بأن تُمس شعرة من

رأس مولاتهم ، وألحوا علىّ فى كتمان الخبر ، ولكنى خفت أن تكون خيبة عمارة وصاحبه فى هذه المؤامرة ، دافعاً إلى الشروع فى غيرها ، فأسرعت إلى جاريتك : باسمة ، ورجوتها أن تبلغك أمرها .

ـ لقد أحسنت يا ابن دخان . ثم أشارت بكفها فخرج .

وبينما كان ابن دخان يمر بأحد دهاليز القصر ، رآه مجاهد الرّملى ، فاختفى وراء ستار ، لأنه كان مع اشتراكه فى الدّسيسة يكره الكلام فيها ، وفى تلك اللحظة مرّت باسمة ، فقال لها ابن دخان الآن وجب قضاء الدين يا فتنة العين ، وريحانة النفس . ثم وثب عليها فطوّقها بذراعيه ، فلم تمانع ولم تعمل على إبعاده ، فانكبّ على وجهها يشره بملؤه قبلا يزيدها الحب لذة ورنيناً .

رأى مجاهد كل هذا فغلى دمه من الغضب ، وظهر فى عينيه السخط والحنق ، وتحركت فى صدره أفاعى الانتقام ، ولكنه كظم غيظه ، وانتظر حتى انصرفا ، فخرج من وراء الستار كالمجنون الذى طار عقله وهو يتمتم : ويل لها ! . . ويل له ! . . ألأجل مال هذا الدميم كانت تتدلل علىّ وتنفر منى وتزورّ عنى ، وتقابل توسلات حبى بالسخرية والاستهزاء؟ والله لأبطشنّ بهما معاً ! !

قضت سيدة القصور أياماً تقلّب الرأى فى أمر عمارة . حتى انتهى بها العزم إلى وجوب البطش به ، ورميه فى بئر القصر المعروفة ببئر الصنم ، التى كثيراً ما ابتلعت أعداء الفاطميين . فنادت مؤتمن الخلافة ، وأمرته بدعوة عمارة إلى قصر الزمرّد .

وفى غد ذلك اليوم جاء عمارة إلى القصر ، وهو خائف يرتعد ودخل بهو الأميرة ، فرآها جالسة فى الوسط ، وإلى جانبها مؤتمن الخلافة وجاريتها « باسمة » ورأى ابن دخان واقفاً ومعه ثلاثة من جنود القصر ، نتقدم ليقبّل طراز الأميرة ، فزجرته وأمرته بالوقوف بجانب ابن دخان ، فوقف مبهوتاً لا يدرى لكلّ ما يرى ويسمع سبباً ، ثم التفتت سيدة القصور إلى ابن دخان وقالت : قدّم دعواك يا ابن دخان. فأخذ يقصّ ما حاك من دسيسة ، وعمارة فى ذهول ، يرى البهو يدور بمَن فيه ، ثم ينقلب فيراهم فى سقفه لا فى أرضه. حتى إذا أتمّ ابن دخان دعواه ، اتّجه إلى الجنود وقال : وهؤلاء الجنود المخلصون الذين أرادوا أن يستغووا المتآمرين حتى يوقعوهم فى الشرك ، سيقدّمون إلى مولاتى ما يؤيد وقوع هذه المؤامرة الخسيسة . فقالت سيدة القصور : وأين مجاهد الرملى ؟ ؟ . . فإذا صوت يصيح فى دهليز البهو : هأنذا

قادم إليك يا مولاى . ويدخل مجاهد ، فينظر مرّة إلى « باسمة » ومرة إلى ابن دخان ، ثم يصيح : هذه دسيسة كاذبة ملفقة يا مولاى . . إن زوجتى باسمة هذه هى التى نسجت خيوطها الواهية مع ابن دخان ، وهؤلاء الجنود الكاذبون وُعد كل واحد منهم بمائة دينار ، لقاء كذبه وزوره ، وقد وافقتهم على الاشتراك معهم ، ولكنّى رأيت آخِراً أن هذه الوشاية قد تحدث فتنة ، وقد تدفع الناس إلى التحدّث عمّا يسمونه : دسائس القصر ، فأسرعت إليك يا مولاى لأعيدها إلى الرمس الذى نُبشت منه ، ولأقتلها فى مهدها .

شمِل الصمت والذهول جميع مَن حضر ، وأحسّ عمارة أن هاتفاً يهمس فى أذنه : لقد نجوت . واصفرّ ابن دخان وارتعدت أوصاله ، وصاحت الأميرة فى غيظ وحنق : وما برهانك يامجاهد؟ !

ـ برهانى : أنك تجدين فى خزانة ديوان الرواتب أربع صرر ، بكلّ واحدة منها مائة دينار ، وقد كتب على كلّ صرّة اسم واحد منا ، لأننا لعلمنا بمخاتلة ابن دخان ومخادعته ، خفنا أن يماطلنا فى نقد المال بعد إتمام الدسيسة ، فحتّمنا أن يكتب بيده اسم كل واحد منا على صرّته .

فاتّجهت الأميرة إلى مؤتمن الخلافة وقالت: اذهب مع هذا الرجل (وأشارتْ إلى ابن دخان) وأحضر الصرر إن وجدتها

فذهبا وابن دخان يجرّ ساقيه ، ثم عادا ومعهما الصرر الأربع وقد كتبت عليها أسماء الجند كما قال مجاهد . فقالت الأميرة : لقد انجلى الحق . وأمرتْ بأن يطرد ابن دخان من رياسة ديوان الرواتب ، وأن تطرد باسمة من القصر ، وأن تضرب عشرين سوطاً ، وأن يضرب الآخرون خمسين سوطاً .

ثم اتّجهت إلى عمارة وقالت: أسأنا بك الظن أبا محمد ، وطفقت تعتذر إليه وتستعطفه ، وتشكو إليه ما حولها من الدّسائس التي تحاك في ظلمة الليل وظلمة النفوس. فتقدّم عمارة يقبّل يديها وقدميها وهو يبكي ويقول: والله يا مولاتي لو وسوس إلىّ فؤادي مرّة أن أمس شعرة لفاطميّ أو فاطمية ، لخلعت فؤادي من صدري . فمسّت كتفه بلطف وقالت : أعود إلى ما كنت لك . . . وتعود إلى ما كنت لي . . . وننسى هذه العاصفة الكاذبة التي كانت سبباً في توثّق ودادنا .

٩

مرت شهور وأيام ، مات فى أثنائها الخليفة الفائز ، فقد أصابته حُمّى لم تمهله أياماً حتى قضى . وما كادت سيدة القصور تمسح أول دمعة عليه ، حتى أشارت بتولية عبد الله ابن أخيها يوسف ، لانه كان صغير السن ، وفى ذلك تمكين لسلطتها فى الدولة .

فقد كان فى الحادية عشرة ، فلقّبه ابن رزيك : بالخليفة العاضد بالله ، وقامت له البيعة بقاعة الذهب فى يوم حافل . ووقف عمارة بين الحشد الجامع من المبايعين ينشد :

لئن قلّ صبر فالمصاب عظيم ... وإن جلّ شكر فالنّوال جسيم
لئن عرضت للفائز الطّهر نُقلة ... فأنت أميرَ المؤمنين مقيم
وإن سلبتنا جنة الخلد قربُه ... فقربك منّا جنة ونعيم

ثمّ عدّد مآثر الفاطميّة والفاطميين ، فأجاد وحلق .

وبعد أيام ذهب عمارة للقاء سيدة القصور ، فرآها فى حزن

مُقعِد مقيم، فأخذ يعزِّيها فى الفائز، ويهدِّئ من ثورة حزنها فقالت: والله ما على الفائز أبكى يا عمارة، وإنما أبكى على دولتنا. لأننى منذ تولية العاضد وأنا أشعر شعوراً غريباً لا أعرف كنهه بأنه سيكون آخر خلفائنا، وقد كنت أبيْت أن ألقبه بالعاضد، ولكنّ هذا الأرمنىّ ابن رزيك أبى إلا هذا اللقب.. أتدرى أننى لشدّة ضيقى بهذا الأمر، والخفاء سببه على، ذهبت إلى خزانة الكتب بالقصر، لأبحث فى الأوراق القديمة الخاصَّة بدولتنا، فعثرت على ورقة كان طلب جدّى المعزّ من قاضى مصر إذ ذاك — أبى طاهر محمد بن أحمد — أن يكتب له فيها ألقاباً يُلقب بها من يأتى بعده من الخلفاء، فكتب القاضى له ألقاباً كثيرة، وكان لقب العاضد آخر هذه الألقاب؟! فحزنت حينما رأيت الورقة، وعلمت السرَّ فى تطيُّرى. إن روح الإنسان يا عمارة تلتقط الغيْب أحياناً، وكثيراً ما يسرّ الإنسان بغير سبب ظاهر، فتفد عليه أسباب السّرور، وكثيراً ما يحزن كذلك، فيلتقى بما يحزنه فى الطريق.. قاتل الله هذا الإنسان!!... لقد وضعه الله فى برزخ من الآلام: فلا هو من البهائم فيعيش فى ظلام الجهل هانئاً، ولا هو من الملائكة

فيعيش فى صفاء من النور سعيداً .

ـــ هذه أوهام يا مولاتى . وإن الخلافة بك وبالمخلصين من أنصارك فى حصن حصين .

ـــ أرجو أن يكون الأمر كما تقول ! ! آه ! ! ليتنى كنت رجلا ! ! . . . إن القدَر أحياناً يضع نفوساً فى غير أجسامها ، ويهَب السَّيف لغير حامله . . . علمت أن ابن رزيك فى هذه الأيام يتبجَّح بالعظمة ، ويُكثر من الأعوان ، ويلوى لحيته إلى أنفه ليشمَّ رائحة الخلافة . وخير له أن يرعوى ويزدجر ، فإن دمالج سيِّدة القصور أقوى من رماحه وسيوفه . وإن سيدة القصور لا تحارب بالرجال ، وإنما تحارب بجيش من الآراء ، يأخذ أعداءها بغتة وهم لا يشعرون . . . آه ! ! أريد أن أكون رجلا ، لأبرز لهؤلاء القوم من وراء السِّتار . . . ثم تضحك وتقول : ما هذا الجنون الذى أصابنى ؟ ! وهل أجد رجلا كابن رزيك بين رجال دولتى ؟ ! .. إنه الملك الصالح ! ! .. إنه أبو الغارات ! ! .. إنه ناصر الفاطميَّة بيده ولسانه وجنده ! ! . . لحقًّا إن النساء ناقصات عقل ناقصات دين ، ولأمر مَّا حُرمت المرأة النبوة والإمامة والقضاء .

أمّا عمارة : فإنه يتحيّر فى أسباب اضطرابها وتناقضها ، وتلوحها باسم ابن رزبّك مرة بالسخط ، ومرّة بالرّضاء ، فيستأذن وينصرف .

ثم يأتى شهر رمضان سنة ستّ وخمسين وخمسمائة ، فتحتفل القاهرة باستقباله ، وتظهر المدينة بالليل كأنها شعلة من نور ، لكثرة ما يسرج فيها من المصابيح التى تعلق فوق المآذن والدّور والحوانيت ، وفى كلّ مكان . ونشاهد فى القصر حركة غريبة ، ونجد سيدة القصور فى شغل شاغل ، ونرى اجتماعات كثيرة تقام فى سراديب القصر ، تحضرها الأميرة ومؤتمن الخلافة ، وابن قِوام الدولة صاحب الباب ، والأستاذ المحنك عنبر الربْعىّ . وفى أحد هذه الاجتماعات أخذت الأميرة تعدد سيئات ابن رزيك ، وتذكر مطامعه فى الدولة ، وتهوّل فيما أصاب الخلافة من الضعف فى أيامه ، وأنه يضعفها قصداً ليلتهمها . فقال مؤتمن الخلافة : إن الخلافة ضاعت هيبتها منذ أن سيطر عليها بدر الجمالى الأرمنىّ فى أيام المستنصر . وقد زاد ضعفها بهذا الأرمنى الجديد المتبجّح الذى يلقّب نفسه بالملك الصالح . وقال ابن قِوام الدولة : إن مظالمه عمت مصر جميعها ، حتّى أصبح المصريّون يتمنّون موته.

فقالت سيدة القصور : وكيف نستريح من شره ؟ ؟

— إنه يزور القصر فى كل ليلة بعد العشاء الآخرة ، وهو يدخل من باب العبيد إلى الدهليز الموصل إلى قاعة الفضة ، حيث يجلس الخليفة فى رمضان. وإنى سأخلى الدهليز ليلة غد من المارة قرب وصوله ، ثم إن بالدهليز خزانة يمكن الأجناد أن يختفوا بها مع رئيسهم ابن الراعى ، فإذا مر ابن رزيك شغلته ببعض الحديث ، وأصابتنى نوبة سعال يسمعها الجند فى الخزانة ، فينقضون عليه بسيوفهم .

فقال عنبر الربعى : هذا حسن ... ولكن أترون أن أتباعه وجنوده لا يثورون إذا علموا بقتله ؟ !

فقال مؤتمن الخلافة : دع هذا لى . فإن عندى من الجنود السودان عدداً يحيل نهار القاهرة ليلا .

وقالت سيدة القصور : إن من السهل أن ندعى أننا لا نعرف من قتله ، ويجب لأجل ذلك ألا يكون الجنود من السود ، كما يجب أن يغيروا أزياءهم ، وأن يلبسوا ثياب عامة المصريين .

فقالوا جميعاً : نعم الرأى يا مولاتى . وسيطهر أديم مصر من ابن رزيك غداً . ثم نهضوا للقيام ، وكررت الأميرة وصيتها

بالكتمان والتدبر ، وإحكام المؤامرة .

وفى الليلة الخامسة من رمضان ، جاء طلائع على عادته يصحبه ابنه مجد الإسلام، ودخل من باب القصر ، ونُفّذت المؤامرة كما صوّرها ابن قوام الدولة، لم يخرم منها حرف ، وهجم جندىٌّ على مجد الإسلام بسيفه فشطر عضده ، ثم وثب ابن الرّاعى على طلائع فطعنه فى نحره . ولمّا وصل الخبر إلى سيدة القصور ، أمرت الجوارى والغلمان بالولولة والصياح والاستغاثة ، وأمرت الجنود بإظهار الألم ، وبالجرى هنا وهناك للقبض على المجرمين، وبثت أعوانها السرّيين بالقاهرة، يُشيعون أن جماعة نقبوا سور القصر واغتالوا ابن رزيك . ثم إنها أرسلت إلى مجد الإسلام ابنه، فجاء إلى القصر ، وقابلها فى حشد من الأستاذين فلاقته باكية نادبة ، وأشارت من بعيد بأن شاوَر بن مجير والى قوص ، وأكبر منافس للملك الصالح، هو مدبر هذه الجريمة . ودخل عمارة وقد أذهله الحادث ، وأبكته المصيبة فأنشد قصيدة طويلة فى رثائه ، وكانت الأميرة تبكى بعد كلّ بيت بكاء الثاكل ، وتتلوى من الحزن، حتى اضطر الأستاذون إلى إسكات عمارة ، وانفضّ المجلس . وبعد أيّام اختلت الأميرة ببعض

الأعوان السريين ، فأخبروها أن جنود ابن رزيك وأنصاره يتأهبون لثورة جامحة ، فدعت رجالها لمشاورتهم فى الأمر ، ورأت لدرء الفتنة أن يتولى مجد الإسلام رزيك مكان أبيه ، ثم نظرت إلى مؤتمن الخلافة وقالت : اشغل دائماً عدوك عنك بمحاباته ، حتى يدع لك وقتاً تستأصل فيه شأفته ! وليس بالثمن الغالى أن يحكم رزيك شهوراً ، لكيلا يبقى رزيكى بأرض مصر ، ولكى يستقل العاضد بأمور الخلافة غير مزاحم ولا معارض. إن الأمر يتطلب زمناً طويلا للتفكير ، وشر الرأى الفطير .

١٠

خرجت « باسمة » من القصر مطرودة مجلودة ، فحملها بعض الجند إلى مسكن زوجها ، فمكثت به أياماً وزوجها محزون حنق ، يأنف من النظر إليها أو القرب منها. حتى إذا نقهت أرسل إلى ابن دخان ، فلما حضر قال له مجاهد : أنت أيها الشيطان سبب إغواء هذه المرأة وإفسادها ، فاحمل خطيئتك على

كتفيك ، فليس لى بها من حاجة . خذها لا بارك الله لك فيها ، فإنها طالقٌ . وإن الكريم لا يشرب من إناء وَلَغتْ فيه الكلاب.
فزأرت « باسمة » كما تزأر اللبؤة الهائجة وقالت : لقد رميتنى بالإفك . . . وإننى والله ما فرحت بزواجك ، ولقد سرّنى طلاقك . ولو كان الطلاق من حقّ المرأة لكنتُ البادئة به منذ حين... عجباً للرّجل منكم ! ! يلوى رأسه للمرأة كِبْراً ويقول : أنت طالق . ولو كُشف عنه الغطاء لعلم أن المرأة طلقته قبل ذلك ألفَ مرّة !! . إن الطلاق نعمة من نعم الله إذا تزوّجت امرأة بمثلك . أما أن يأخذنى ابن دخان أو لا يأخذنى ، فذلك ما لا شأن لك فيه ، ولن أريد أن أكشف لك عن طهارتى مع ابن دخان ، فإنك عندى دون من تُبسط له حجّة ، أو يقدّم إليه اعتذار . . . هلمّ يا ابن دخان ، خذنى إلى حيث شئت.
خرجت تتعثر هى وابن دخان ، فقال لها وهما فى الطريق :
أنا لا أريد أن أبدأ الحديث يا باسمة فإنى أخشى أن أزِلّ ، فأنا رجل صناعته جمع الأرقام لا تزويق الكلام ، ولكنى عبدك وطوع يمينك ، أمدّ يدى إليك مدّ الخادم يده لسيّدته ، لا مدّ الآمل إلى أمنيته ، وأين أنا منك يا باسمة ؟ ! أنا كلب باسط

ذراعيه بالوصيد ليحرس سرًّا سماويًّا وملَكاً أرضيًّا ! ! فأرسلت « باسمة » ابتسامة خفيفة ، اقتحمت طريقها من بين شفتيها العابستين وقالت : إن الكلاب تعَض أحياناً .

ــ أنا كلب أليف أمين يا أميرتى .

ــ ولكنى أكره نُباح الكلاب كلما رأت شخصاً غريباً .

ــ كلبك تكفيه الغمزة والإشارة ، فلو رأى الدنيا كلها حولك وأشرت إليه بإصبع ، لربض راضياً مغتبطاً .

ــ أنت لطيف يا إبراهيم ! !

ــ أنا لطيف . . . لطيف جداً . . . وسعيد . . . سعيد جداً . . . لأنى لطيف . أعلمتِ أنّ مؤامرتنا على عمارة اليمنى نجحت ؟ !

ــ نجحت ! ! إنّ جسمى لا يزال يلتهب من السياط ! ! فكّر كما يفكّر الناس يا إبراهيم لا كما يفكّر الكلاب .

ــ إن كنتُ كاذباً فلا أبقى الله لى رأساً ولا ذنباً . . . لقد نجحت المؤامرة . أليس من أكبر آثارها أننى أتحدثُ الآن إليك ، وأن آمالى التى طفِقتُ أكتمها فى صدرى سنين طوالا أخذت تطلّ برءوسها ؟ ! هلمّ إلى منزلى لنفكّر فى شئون الزواج .

– قبل أن تفكر فى هذا يجب أن أتحدث معك طويلاً . . .

دخلا منزل ابن دخان ، حتى استقرا فى حجرة مطلة على الخليج ، التفتت « باسمة » إليه وقالت : أرأيت كيف كان جزاء خدمة هؤلاء الفاطميين ؟ ! انظر كيف بعنا أنفسنا لهم وكيف عادينا الناس لأجلهم ، وكيف تجسسنا ، وكيف وقفنا خلف الأبواب نسترق الأحاديث ، وكيف عرضنا أنفسنا للسم والقتل من أعدائهم ؟ ! ثم أنظر ماذا كان الجزاء الأوفى على هذه الخدم ؟ ! . . . كان أن نطرد ونجلد ! ! سحقاً لهم ولدولتهم ! ! والله لأنتقمن منهم.

– أنا طوع أمرك ، فانظرى ماذا تأمرين .

– ثم هذه الصلفة المنتفخة سيدة القصور ، التى تدعى حكمة سليمان ومكر هامان ، وأن فيها أسرار المعز وسطوة الحاكم ، والتى لا تعيش إلا لنصب الأشراك ودس الدسائس . هؤلاء الفاطميون قتلونى بغرورهم وجنونهم ، كأن الله لم ينشئ الكون إلا لهم ، ولم يخلق الفضائل إلا انتظاراً لقدومهم . . . احتفالات ومهرجانات ، وأعياد ، وطبل وزمر : هذه هى دولتهم ، وهذه هى ألاعيبهم التى يلهون بها العامة ، ويشغلونهم عما يحيق بهم من

الظلم والعسف واغتصاب الأموال . وإلاّ فمن أين هذه الجواهر المكدّسة فى القصر ، وهذه الكُومات من الذهب والفضّة ؟ ؟ .. ولقد بالغوا فى المظاهر إلى حدّ البَله ، حتّى لقد كدت والله أفضح نفسى ، وقد ملكنى الضّحك حين أخذنا نُلبس الخليفة الفائز شعار الخلافة . . . تصوّر غلاماً فى الخامسة يلبَس عمامة أبيه ، وجبّته وطيلسانه ! ! . . . لقد ملأنا العمامة قطناً ، حتّى إذا وضعناها على رأسه ، مال عنق المسكين ولم يُطق لها حملا ، فحملها أستاذ لتنوب يده عن رأس سيّده. أما الجبّة : فقد غرِق البائس فيها ، واختفى بين حليتها وذهبها . لا . . . لا . . . إن دولة الباطل ساعة ، وأرجو أن تكون قد دنت نهاية هذه الساعة .

— لقد صوّرتِ ما فى نفسى يا باسمة ، فقد أصابنا من الفاطميّة ومن سيدة القصور — بعد طول الخدمة وإخلاص النُّصح — ما لم يُصِبْ أحداً. ولكنّ الوقت لم يحِنْ بعد لتسديد السهم .

— هل رأيت زين الدين بن نجا ؟

— لم أره منذ حين ، وأظنه فر من مصر بعد أن زيّن الدّين بمؤامراته على عمارة .

ثم مضت فترة من الزمن بنى فيها ابن دخان بباسمة ، ومضت فترة أخرى مات فيها الفائز ، وقتل طلائع بن رزيك ، وتولى ابنه مجد الإسلام . وهنا تيقظ نائم الأحقاد بصدر « باسمة » فقالت لزوجها : أصدّقتَ تلك الأكذوبة التى تشيعها العامة ؟؟ وهى أنّ أنصار شاور بن مجير نقبوا جدار القصر وقتلوا طلائع ؟ !

— هذا كلام يقال لغيرى وغيرك ، على الرغم من بكاء سيدة القصور عليه وطول عويلها . لأنها كما تقول العامّة : « تقتل القتيل وتمشى فى جنازته » .

— هذا لا شكّ فيه ، وما أظنّ أنّ رزيك بن طلائع صدّقها ، ولكنه جبان جشع ، اكتفى بمكان أبيه من الوزارة ثمناً لرأسه ، وسيبقى ألعوبة فى يد سيدة القصور ورجال القصر ، لأنه خائر العزم ضعيف النفس ، ليس فيه صفة من صفات أبيه ، التى كبحت جماح الأميرة وكسرت شوكتها وألزمتها حدّها ، وستتركه سيدة القصور قليلاً ، حتى تحين الفرصة لاغتياله واغتيال أهله وأنصاره ، وحينئذ تستقلّ بالملك والخلافة ، وتُعيد — كما كرّرتْ على سمعى كثيراً — أيام الحاكم بأمر الله .

ــ إنّى أنظر بعينى ، فلا أرى بين كبار قوّادنا من يستطيع أن يكون نِداً لهذه المرأة الجبّارة ، فقد قتل طلائع بن رزيك جميع منافسيه ليخلو له الجوّ ، وكأنما قتلهم ليخليه لها ! !

ــ نعم قتلهم جميعاً إلا واحداً ، وهو شاوَر بن مجير والى قوص ، وقد كنت صديقة له فى القصر ، أو كما كان يسمّينى وكيلته ، أو كما كان يقول الناس جاسوسة له ، وشاور رجل شجاع قاسٍ ، طمّاح كثير الأتباع والأنصار ، فلماذا لا ندفعه إلى اهتبال الفرصة ، والقدوم بجيشه إلى القاهرة لاستئصال أبناء رزيك ، وقتل الخليفة وسيدة القصور ، والجلوس على عرش الخلافة ؟ !

ــ يا حبّذا لو صحّت الأحلام ! ! إذاً سيكون لك ولى المقام الأول فى القصر .

استمرّتْ هذه الفكرة تدور فى رأسيهما أياماً ، حتى إذا اختمرت غادرا دارهما بالقاهرة ، وخرجا إلى الفُسطاط مع بعض الخدم ، واستأجرا سفينة إلى قوص .

صعِدت السّفينة وكان الوقت خريفاً ، والجو إلى البرودة أميل . وكانوا كلما وصلوا إلى قرية أو مدينة رست السفينة ،

وخرج الخدم فابتاعوا ما يريدون من طعام ، وشراب ، وفاكهة .
وعاش ابن دخان وباسمة فى السفينة شهراً أو بعض شهر ، فى أنس ونعيم وطرب ، حتى لقد قال لها ابن دخان يوماً ، وقد رأى الشمس غاربة ، وقد نفذت أشعتها إلى سحب خفيفة حولها ، فأرسلت ألواناً يحار اللغوىّ فى تسميتها ، والرسّام فى تكوينها ، ثم رآها تسقط رويداً بين النخيل المتكاثفة ، فتظهر من خلالها صافية برّاقة ، كأنها سبيكة من نضار — : يا باسمتى . . . حرام أن نقضى حياتنا فى هذا اللغو ، وأن نعمى عن التمتع بجمال الكون وبهجة الحياة . إنّ عندى من الأموال ما يكفل لنا العيش الناعم المترف ، فلماذا نكدر هذا العيش بالغمّ والحزن والكيد لفلان ، والحقد على فلان ؟ ! انظرى إلى الشمس ! !
— إنك أبله ! !
— صدقتِ يا حبيبتى ! ! إننى أُصاب بالبَلَه عند كلّ مغيب شمس .
فابتسمت « باسمة » وقالت : لو وقف جوهر القائد وقْفتك هذه ، وتغزّل فى الشمس وجمالها كما تتغزّل ، لتفرّقت جيوشه وما فتح مصر . وإنى لم أقرأ فى التاريخ عن أمير أديب أو شاعر ،

إلاّ جاءته نكبته من أدبه، وإغراقه فى حبّ الجمال . إن الله خلق فى الإنسان وجداناً وفكراً وإرادة ، ولكى يكونَ الإنسان كاملا ، يجب أن تتوازن فيه هذه وتتعادل ، لأن من يتحكم فيه وجدانه كان عبْد شهواته . ومن يتحكّم فيه فكره بقى حزيناً عاجزاً ، أما من تتحكم فيه إرادته فمجنون معربد . . . أفهمت يا زوجى المفتون بالجمال ؟ !

— فهمت درساً يعجِز عنه كل الشيوخ الذين يدرسون بدار الحكمة .

وصلت السفينة إلى قوص ، وذهبت « باسمة » وابن دخان قاصدين قصر شاور . فما إن دخلا وأخبرت « باسمة » الخدم باسمها ،حتى أرسل إليهما شاور ،وبذل فى تحيتهما وإكرامهما خير ما يبذل العربى الكريم ، ثم سأل « باسمة » عن القاهرة وأحوالها ، وعن مجد الإسلام رزيك ووزارته ، فأجابته بعبارات مبهمة . وكان يظهر على شاور الغيظ من رزيك والألم من بعده عن تقلّب الأمور بالقاهرة ، حتى لكأنه أسد شرس حبيس . وبعد أيام اختلى شاور بباسمة وابن دخان طويلا ، فقال شاور لباسمة : كنت أظنك لا تزالين بالقصر ! !

— سئمت ياسيدى مكايد الفاطميين ودسائسهم، واستبداد سيِّدة القصور بأمور الدَّولة. وسئمت تحكُّم الأستاذين والجنود السُّودان فى أشراف العرب.

— وبم تشيرين علىّ الآن ؟ ؟

— إن رزيك الآن أضعف من تُمَامة، وهو لُعبة فى يد سيِّدة القصور. فإذا لم تقتنص الفرصة لدخول القاهرة، والجلوس على عرش الخلافة، ضاعت منك إلى الأبد.

— أعتقد أنّ العامة يحبون الفاطميين ويحبون أموالهم حبًّا جمًّا. وأنهم يدافعون بأرواحهم عن خلافتهم.

— إذا نثرت أموالك على جيوشهم، ألقوا السلاح ليلتقطوا الدراهم . .

— ثم هناك الجنود السود، وهؤلاء وحوش، إذا سمعوا قعقعة سلاح طارت رءوسهم، وقذفوا بأنفسهم كالفراش المتهافت على النَّار.. لايا باسمة، إن الأمر ليس بهيِّن، وإن الوقت لم يحن بعد لهدم الخلافة الفاطميَّة، ورأيى: أن نصل إلى الغاية فى مرحلتين لا فى مرحلة واحدة: نهجم على القاهرة أولاً مدَّعين أننا جئنا لنصرة الخلافة واستنقاذها من أيدى الأجانب، حتى

إذا قضينا على آل رزيك وأنصارهم واسترحنا قليلا ، اختلقنا أسباباً لاستئصال الخلافة ، بعد أن نكون قد أعددنا العُدة .

ــ لا ياسيدى . إن سيدة القصور لن تتركك تستريح ، والثعبان إذا قطع ذنبه زادت ضراوته .

ــ إن نصف التوفيق توفيق .

ــ ونصف الكمال نقص .

ــ وما تقولين فى أنّ ثلاثة أرباع جيشى الذى سأدخل به القاهرة ، فاطمىّ النزعة والعقيدة ! ! وأننى لا أستطيع بحال أن أوجِّهه إلى هدم الخلافة ، ولو أشرتُ إليه ما أطاعنى . دَعِى لى تدبير هذا الأمر يا باسمة ، وسترينْ أننا بعد شهر أو شهرين من استقرارنا بالقاهرة ، سينادَى بخلافتنا . وستؤخذ لنا البيعة فى القصر الكبير ، وستكونين سيّدة وصائف القصر .

ــ ليكن ما تريد يا سيدى .. ومتى يزحف الجيش من هنا؟

ــ بعد خمسة أيام .

١١

زحف شاوَر بجيشه إلى القاهرة ومعه ابناه : « طىّ » و « شجاع » . وكان الجيش لُهاماً خِضَمّاً ، خطب فيه شاور خطبة ضافية مثيرة ، ودعاه إلى إنقاذ الخلافة الفاطمية من أيدى الأرمن الغاصبين ، وبعد فترة طويلة أشرف على أرباض القاهرة .

علمت سيدة القصور بتحرك جيش شاور من قوص ، ونقل إليها أصحاب الأخبار مقدار قوته وعدد رجاله ، فلم تحرك ساكناً ، لأنها رأت أن فى اختلاف اللصوص نجاة القافلة ، ورأت فى شاور أنه على الرغم من جفوته ، ويبس أخلاقه ، وشرهه فى حب المال — لا يزال عربيًّا . وعرضت الأمر على عمارة — وكان محبًّا لرزيك ، صديقاً لشاور — فروّى فى الحكم ، وغمّ عليه وجه الصّواب . فقالت له سيدة القصور : إنى لا أوثر أحدهما على صاحبه ، فكلاهما غاصب للدّولة معتد على سلطتها ، وأرى أن فى معاضدة أحدهما زوالاً للخلافة ، وأن الأمر لا يخلو

من إحدى اثنتين : إمَّا أن ينتصر من ساعدناه بجيوشنا ، وإما أن ينهزم . فإن انتصر ، فلن يصل إلى النصر إلا بعد أن تكون جيوش القصر قد ضعفت وقلّ عددها ، وحينئذ نراه بعد أيام قد انقلب علينا واستلب عرشنا ، لما يعلم من عجزنا عن مقاومته . وإما أن ينهزم وينتصر خصمه ، وتلك الكارثة العظمى ، لأن الخصم المنتصر لا يكتفي بهزيمة عدوه بل يدفعه الانتقام إلى استلاب ملك مناصريه . لا يا عمارة .. يجب أن نقف من هذين الخصمين وقفة المشاهد ، ولا نميل بجانب إلى واحد منهما ، وأن نقول كما يقول العرب : الكِلابَ على البقر ! ! فاقتنع عمارة . وما هي إلا أيام حتى دخل شاور القاهرة ، وفرّ رزيك إلى إطفيح وتمكّن منه شاور وقتله ، ثم أعمل سيفه في آل رزيك واستولى على أموالهم . ودخل على سيدة القصور فقابلته بخير ما يُقابل به الفاتح العظيم ، ونثرت فوقه ألقاب الشرف والبطولة ودعت عمارة إلى مدحه ، وولاّه الخليفة العاضد شئون الوزارة ، واجتمع حفل عظيم بقاعة الذهب عند توليته أنشد فيه عمارة قصيدة رائعة .

استمر شاور في الوزارة ، وكان جشعاً خبيثاً سفاكاً للدماء ، فأغضب العامة والخاصة ، وطالما نصحت له « باسمة » — التي

أصبحت ولها أكبر مكانة فى قصره — بالرفق وصرف الناس عن التعلق بالخلافة بما يبذل من مال ، وما ينشر من عدل ، ولكنه لم يُلق لها سمعاً ، لأنه كان بطبعه جافاً شريراً سيئ التدبير . وكان أخوه « نجم » مسيطراً عليه ، فزاد حكمه فساداً على فساد .

ضجّ أهل القاهرة من ظلم شاور وعسفه ، فاجتمعت جموعهم ، وتلاقت حشودهم عند باب زَويلة ، وكان زعيم الجمع ورئيسه الشيخ عبد الحكم الغفارى المدرس بجامع الحاكم ، وكان جهير الصوت قوىّ التأثير ، فأخذ يرسل فيهم صوته بمخازى شاور ، وإرهاقه الأمة بأنواع العسف والقوة الجائرة ، حتى هاج كوامن أحقادهم ، ثم دعاهم إلى السير إلى القصر الكبير ، فساروا كالبحر المائج ، وكان صياحهم : يا شاور ظلمت ! ! يا شاور طغيت ! ! . . . الله الله فينا ! ! . . . بالخليفة نستنجد ! ! وكانت النساء تطلّ من النوافذ يحيين الجموع بالأغاريد والدعاء . ولما قربوا من القصر ، أمرت سيدة القصور عمارة أن يخرج إليهم ويهدّئهم ويكلمهم كلاماً عائماً ، ويعدهم ويمنّيهم . وقد تمّ كل هذا ، وأظهر عمارة براعة فى اجتذاب الجموع إليه ، وفى تسكين غيظهم من غير أن تندّ منه كلمة

تغضب صاحب الحكم أو تغضب الثائرين ، وما زال بهم حتّى تفرّقوا مطمئنين مغتبطين .

وبعد يومين عقدت سيدة القصور مجلساً بالقصر ، حضره الأستاذون، ومؤتمن الخلافة ، وضِرغام بن عامر اللّخميّ ، صاحب الباب ، ورئيس الجنود البرقية ، وتداول من بالمجلس فيما صارت ليه الأمور فى عهد شاور من الفساد والعَفَن ، ورأوا أنه لا بد من استئصال شأفته ، وتطهير البلاد من شره .

وكان ضرغام فارس عصره ، شجاعاً جميل الطلعة ، أديباً شاعراً . فوقف وقال :

ـــ يا سيدى إن لدىّ من الجنود البرقية عشرة آلاف ، وهى تكفى لمحو هذا الطاغية ومحو عصابته فقالت سيدة القصور : إنى لا أقنع إلا برأس شاور .

خرج ضرغام وقضى أياماً فى إعداد جيشه فى الخفاء ، حتّى إذا تمّت أهبته، وثب فجاءة على شاور . فجمع شاور جيشه ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام ضرغام، بعد أن ناصره أهل القاهرة، وجمع له الشيخ عبد الحكم جموعاً من أحياء العطوف ، و برجوان ، والفرحية ، والريحانية . فهُزِم شاور ، وقَتَل ضرغامُ ابنه طيا ،

وفر بجيشه إلى الشام للاستنجاد بنور الدين محمود بن زنكى .

وعاد ضرغام إلى القاهرة فائزاً تُدق أمامه الطبول، وترفع له الرايات، ووصل إلى القصر وقابلته الأميرة مرحِّبة مهنئة ، وولاه الخليفة الوزارة .

وكان ابن دخان فى ذلك الوقت فى داره فالتفت إلى باسمة وقال: لقد أكثرتِ من نصح شاور يا باسمة، ولكنه لم يسمع ! !

ـ ما دام شاور حياً فلن أفقد أملاً . . . إنه صلٌ مخادع يعرف متى يدخل جحره ومتى يخرج منه . ويجب علينا أيضاً أن ندخل جحرنا الآن حتى تزول هذه العاصفة .

أتظنين أن لشاور عودة ؟ ؟

ـ إنه لمّا حزبه الأمر ، وضايقه جيش ضرغام ، دعانى فنصحت له بما يعمل . وقد استجاب لنصحى فى هذه المرّة .

ـ حسناً . . . هلمّ ندخل جحرنا الآن لنعيش سعيدين متعانقين ، فقد شغلتك المؤامرات عنى .

١٢

ترك شاور بعد هزيمته جيشه بالفرما، واتجه مع أخيه نجم، وابنه شجاع، وبعض خاصته إلى دمشق، فدخلها فى أصيل يوم من أيام الصيف، ورأى جنود ابن زنكى منتشرين بخيامهم وأثقالهم وخيولهم فى أرباضها، ولهم ضجيج وعجيج وحركة. وما زال يسأل عن خيمة العادل محمود نور الدين حتى بلغها، وكانت فى غوطة دمشق بين أشجار الفاكهة والرياحين. فنزل شاور ومن معه بخيمة الحاشية، وطلب من حاجب نور الدين أن يُعلمه بقدومه، فجاء الإذن بعد ساعة.

ودخل شاور فرأى نور الدين جالساً القرفصاء فى صدر الخيمة، وفى يده سُبْحة تتحرك حباتها بحركات لسانه، وقد جلس إلى يمينه العلماء والفقهاء والمحدثون، وإلى يساره القواد وكبار الجند. وكان نور الدين طويل القامة، أسمر اللون، وسيم الطلعة. فأدى شاور التحية فحياه العادل ورحب بمقدمه،

وأخذ العلماء يتناقشون فى تفسير آيات فى الجهاد ، ونور الدين يشاركهم بعض المشاركة ، حتّى عجب شاور وكاد يظن أنه فى صومعة زاهد لا فى عرين قائد . حتّى إذا انفضّ المجلس ، التفت نور الدين إلى شاور وقال : كيف حال مصر ؟ ؟

ــ مصر يا مولاى فى اضطراب مستمر ، وأخشى أن ينتهز الإفرنج فرصة ضعفها فينقضّوا عليها من الساحل ، فإن ضرغاماً اللّخميّ ــ وهو نصير الفاطميين وعدو أهل السُّنة ــ غدر بى وأخذنى على غِرّة ، ففزعت إليك . وقد علمت من أيام وأنا فى الطريق : أنه يراسل الإفرنج ليمُدّوه بجيش يستعين به على محاربة كل من تحدّثه نفسه بإنقاذ مصر .

ــ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ! ! « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بِطانةً من دونكم ، لا يألونكم خَبالاً » . صدق الله العظيم .

ــ ثم إن الخليفة العاضد ضعيف الرأى ، مهزول العزيمة ، وعمّته سيدة القصور تسيطر على الدّولة ، وهى حقود مستأثرة ، تنظر إلى انتصارات مولاى هنا على الإفرنج بعين البغض والضغينة ، وكأن الإفرنج أبناء عمومتها . أما العقيدة الفاطمية

التى أكرهت عليها العامة إكراهاً ، فسيدى أعلم بدخائلها وبدَعِها، وإذا كان مولاى العادل قد وقف حياته على الجهاد فى سبيل الله ، ومحاربة أهل الزّيغ ، فمصر تدعوه لإنقاذها من الظلم والإلحاد ، ومصر تدعوه لحمايتها من غزو الإفرنج ، الذى أصبح منها قاب قوسين .

— ولكنى فى شغل شاغل بمحاربة الإفرنج ، ولو أرسلت معك جيشاً إلى مصر لوثب علينا الإفرنج هنا واستعادوا ما استنقذناه من أيديهم من البلاد . لا يا ابن مجير . . . كل إنسان أولى بمداواة جراحه .

— إنى لا أطلب إلا جيشاً صغير العدد ، ينضم إلى جيشى المرابط فى مدينة الفرما .

— ولا هذا يا ابن مجير . فقد جئت فى وقت توالت فيه الأمداد على أصحاب الصَّليب وقويت شوكتهم .

— ما كنت أحسب قبلك يا سيدى أن إنساناً يرفض ملك مصر ! ! لأكنْ معك صريحاً . . . أتحب أن أكون نائباً عنك فى حكم مصر ، وأن أبعث إليك بخراجها فى كل سنة ، وأن يخطب الخطباء باسمك فوق كل منبر ؟ ؟

فحملق نور الدين فى وجه شاور ، ولكنه رأى وجهاً سمحاً متواضعاً ، ليس فيه أثر للكذب ولا للخديعة . فأطرق وقال : يكون خير إن شاء الله ! ! وفى الصباح دعا نور الدين أسدَ الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين ، وأخبرهما بما كان من أمر شاور ، وأمرهما بتجهيز جيش للذهاب إلى مصر بعد أربعة أيام . وقد حاول صلاح الدين أن يدعو نور الدين إلى التَّريُّث فى الأمر ، حتى يظهر صدق شاور ، أو إلى أن يطلب من شاور ودائع ثمينة لتكون ضماناً لصدقه . ولكن هيبة ابن زنكى والرهبة منه ، حبستا لسانه فلم يستطع تكلما .

سافر الجيش الشامىّ مع شاور وعلى رأسه أسد الدين ، وصلاح الدين ، والتقى عند الفرما بجيش مصر ، ووثب الجيشان على القاهرة ، وجمع ضرغام جموعه ووثب فى مقدمة جيشه على جيش شاور. فطالت الحرب بينهما ، ودمّر كل منهما كثيراً من مبانى المدينة، وأحرق كثيراً من قصورها ، وظفِر شاور فى النهاية بضرغام فقتله ، وشتت جموعه ، واستولى على القاهرة .

وقبل أن يدخلها اختلى بأسد الدين وصلاح الدين ، وقال لهما : إن من الخير لكما ألا تدخلا القاهرة الآن ، لأن القاهريين

إذا رأوا جنود الشام ظنوهم غزاة فاتحين ، فجمعوا لهم وقتلوهم ، وليس لكم من كثرة العدد ما يمكنكم من المقاومة . والرأى عندى أن تعودا إلى دمشق ، وأن تحملا إلى مولاى الملك العادل كريم تحياتى وجزيل شكرى . فقال صلاح الدين :

— إن هذا يخالف ما اتفقتَ مع الملك العادل عليه .

— هو نفس ما اتفقتَ عليه معه يا قائدى الصغير ... لم تتعدّ المسألة أن تكون مجاملة بين أميرين . . . لقد استنجدتُ بالعادل ليساعدنى على إطفاء ثورة فى مصر فساعدنى ، وهذا يحصل بين الملوك كل يوم . فقال أسد الدين : ألم تتعهّد بأن يكون له ملك مصر ، وأن تكون نائبه عليها ؟ ؟ فابتسم شاور ابتسامة دهاء وسخرية وقال : ملك مصر الذى باهى به فرعون ملوك الدنيا ، يمنح فى مقابل خمسة آلاف جندى يسيرون من دمشق إلى باب الفتوح ؟ ! لا يا سيدى . . . إن مصر أغلى من ذلك جداً . . . لم يحصل اتفاق على شىء من هذا . وحينئذ ظهر الغضب على وجه صلاح الدين وقال : إننا سنعسكر فى «بلبيس» وسننتظر أوامر مولانا نور الدين ، وربما التقينا قريباً يا شاور ، ولذلك نرجىء تحية الوداع إلى تحية القدوم ! !

دخل شاور القاهرة فاتحاً منصوراً، ولكن القاهرة لم تستقبله استقبال الفاتح المنصور . وللقاهريين غريزة صادقة فى الحكم على الرجال ومقابلة الحوادث .

وأرسلت سيدة القصور تحياتها للقائد العظيم ، فمثل شاور بين يديها ، وشكت إليه ما لاقت مصر أيام ضرغام من الظلم والعسف والاضطراب ، وخلع عليه الخليفة العاضد خلعة النصر ، وقلّده سيفاً أثرياً كان لجوهر الصقلى فاتح مصر . ثم ذهب إلى داره فقابلته « باسمة » وابنه شجاع واحتفيا به فقال شجاع : أين أسد الدين وصلاح الدين؟ فقال شاور : أرسلت بهما إلى الجحيم .

— أين هما حقًّا ؟ ؟

— رجَعَا إلى الشام . فقالت باسمة: يا للعار ! ! أيطرد العربى أضيافه عند باب داره ؟ ! فظهر الغضب على وجه شاور وقال : نعم يا حاتمى الرعناء ، يفعل العربى ذلك إذا رأى أن أضيافه سينقلبون لصوصاً . وقال شجاع : هذا خطأ يا أبى . قد كان يجب، وقد تعجّلت فى تعهّدك لنور الدين ، أن تكرم قوّاده، وتزوّدهم بالهدايا والأموال، وتعدهم وتمنّيهم، ثم تتخلص

من عهودك فى لطف لا يحس . أما الآن ، فأخشى أن يعود إليك القائدان بجيوش لا قِبَل لك بها ، فلا نكون قد ضعنا وحدنا ، بل ضيّعنا مصر معنا . فقال شاور : إن هذه أوهام يا فتى . . . فإن الإفرنج بالشام لم يتركوا لنور الدين لحظة يفكر فيها فى فتح مصر .

وتركهم شاور غاضباً ، ودخل حجرة ، فرأى أخاه نجما ، فنفض إليه الأمر كله . فقال له نجم — وكان ألأم من شاور وأشد خبثاً — : عملت كل ما يجب أن يعمل ، ولو أن هؤلاء الجنود وضعوا أقدامهم فى القاهرة ، ما استطاعت قوة أن تخرجهم منها .

— ولكن ماذا نعمل يا نجم إذا بعث القائدان رسولاً من بلبيس إلى نور الدين ، وبالغا فى الشكوى منى ومما قد يسميانه خيانتى ، فأرسل إليهما جيشاً جرّاراً لا نستطيع له دفعاً ؟ ؟

— هذا صحيح يا شاور . . . وإن له عندى دواء ، ولكنه قد يكون مُرًّا ! !

— ما هو ؟ ؟

— أن نرسل فى الخفاء رسولاً إلى القائد مرّى ملك الإفرنج بساحل الشام ، لنطلب منه أن يزحف بجيوشه على مصر لطرد

الغزّ من بلبيس ، وأن نغريه بقدر كبير من المال . . . هذا هو الدواء . . . وهو مرّ حتما ، ولكن ألا تظنّه قاتلا ؟ ؟

— لا . . . إن الإفرنج نستطيع أن نخدعهم . أما هؤلاء الغزّ : فلا . . . أين ثعلبة الشمّاخ ؟ ؟ فدخل فتى قصير القامة ، متين العضل تدلّ ملامحه على الشراسة والقسوة . فكتب شاور رسالة طويلة وسلّمها إليه وقال : تسير الليلة مبالغاً فى الاختفاء ، ولن تستريح حتى تصل إلى عسقلان ، فتقدم هذه الرسالة إلى الملك مرّى . ثم نزع خاتمه وقال : وهذا علامة صدقك إن شك الملك فى رسالتك . . . خذ أسرعَ خيلى ، وعد إلىّ بعد عشرة أيام .

وذهب الرسول ، وقدم الإفرنج إلى مصر فى جيش لُهام ، ووثبوا على أسد الدين ببلبيس فصالحهم بمال ، وعاد أدراجه إلى دمشق . ولكنهم لم يقفوا عند بلبيس ، بل أخذوا طريقهم إلى القاهرة ، ودخلها قائدهم بقسم من جيشه ، فأكرم شاور وفادتهم ، وأعدّ لهم منازل وأسواقاً ، وقرر لهم مائة ألف دينار فى السنة . فأقاموا إقامة المحتلّ ، وطغوا وظلموا ، وعاثوا فى القاهرة فساداً .

١٣

مضت أربع سنوات أو تزيد ، والقاهرة فى همّ ناصب ، وكوارث متتابعة ، تقاسي من ظلم شاور وعسفه ، وولعه بسفك الدماء ، واغتصاب الأموال ، وتقاسى من تحكّم الإفرنج واستبدادهم بالناس ، وتسلّطهم عليهم بضروب من الأذى والإرهاق .

وكانت « باسمة » حيرى مضطربة النفس . فقد كانت تريد زوال الدولة الفاطمية ، ولكنها لم ترد أن تزول بمثل هذا الحكم الأرعن الأحمق ، الذى وضع فيه السيف والسوط والنهب ، موضع العدل والحق .

وكان شاور إذا اختلى بنفسه ، تيقّظ فى نفسه رسيس من ضمير مهزول ، فهمس فى أذنه : ماذا فعلت يا ابن مجير ؟ ! . ما هذه الدماء التى لا تزال تقطر من يديك ؟ ! . . . لقد تثلّم سيفك من قطع الرءوس وخدرت يدك من انتهاب الأموال ! ! . .

طلبت الحكم بالقوة والخديعة فلم تهنأ به ، وهزئت بالعز فوقعت فى يد الإفرنج الذين دخلوا القاهرة ضيوفاً مناصرين ، فأقاموا بها حكاماً غاصبين !

وكانت سيدة القصور وعمارة فى ذهول يشبه الحمّى ، لما أصاب مصر والدولة الفاطمية من نكبات على يد شاور الشرير المعتوه . كانا يريدان حماية الفاطمية من تسلط الوزراء ، وكانا يريدان جمع أمورها بيد الخليفة دون غيره . فكانت المصيبة مضاعفة ، لأن شاور بن مجير لم يغتصب سلطة الخليفة وحده بل قاسمه الإفرنج فيها . فوقع الشعب المسكين بين براثن قوتين من قوى الشر ، تسوقانه إلى الدمار والفناء .

واحسرتاه ! ! . . . القاهرة المضيئة ، الفرحة المرحة ، التى ما كانت تنتهى لها أعياد أو مواسم — تصبح مظلمة ، حزينة ، عابسة ، مرتعدة ، تخشى فى الصباح ما يجىء به المساء ، وتترقب مذعورة فى المساء ما يجىء به الصباح . . القاهرة المعزية التى كانت حاضرة الإسلام ، ومعقل المدنية ، وأم القرى ، وسيدة المدائن ، والتى كانت جيوشها لا يفارق النصر راياتها — تصير نهباً مقسماً بين الظلم والطغيان ، ويصبح أهلها أذل من عَيْر و وتد ! !

فجع القاهريون لهذه النوازل ، وتكوّنت جماعات سياسية خفيّة ، واجتمعت إحدى هذه الجماعات بمنزل عمارة اليمنى ، وكان من المجتمعين : المهذّب الأسوانى ، ومحمد بن قادوس ، وداعى الدعاة ابن عبد القوى ، وغيرهم . فقال داعى الدعاة : أرأيتم كيف آلت بنا الحال وكيف أصبحت القاهرة مجزراً عاماً تذبح به الناس مرّة لشهوات شاور ، وأخرى لنزوات الإفرنج ؟! فقال عمارة : والمصيبة يا سيدى أن الخليفة أصبح مغلوباً على أمره ، يرى مصر وهى ميراث آبائه الأمجاد تعتصر وتهتضم ، ويرى الرعية تسام صنوف العذاب ثم لا يستطيع أن يعمل شيئاً . وسيدة القصور تنظر بحسرات إلى آمالها الكبار ، وقد ذهبت مع الهواء ، فلا تستطيع إلاأن تردد الزفرات . وقال ثالث : مررت بالأمس بسوق البزّازين ، فرأيت الإفرنج وقد انتشروا فيها ، وهم سكارى يغتصبون ما فى الدكاكين ، ويؤذون كل من مرّ بالطريق ، والناس فى كرب وذعر . ثم إن النساء فى بيوتهن يرتجفن ليل نهار خوفاً من هجمات الإفرنج عليهن . فقال داعى الدعاة : وقد سمعت أن مرّى ملك الإفرنج بساحل الشام ، وصل منذ أيام إلى أرض مصر بجيش عظيم ، به أجناس مختلفة من

الإفرنج . وأنه نزل على بلبيس وحاصرها ، وأخذها عَنوة، وسبى أهلها . وهو الآن قاصد إلى القاهرة ، لأنه لم يكتف ببقاء بعض جنوده بها ، بل طمع فى امتلاك ديار مصر كلها .

فقال المهذّب : إن الخبر وصل إلى سيدى متأخراً . فإن جيش مرّى نزل فى هذا الصباح ببركة الحبش ، بالقرب من الفُسطاط ولا يخفى على سيدى أن بالفسطاط جميع مخازن الحبوب والغلات ، التى تمون القاهرة . وأن بها جميع ذخائر الحرب . فإذا استولى مرّى عليها سقطت القاهرة فى ساعات .

وفى هذه اللحظة ، دخل الشيخ عبد الحكم الغفارى وهو يلهث من التعب ، وقد تصبب وجهه عرقاً ، وأخذ يصيح : ضعنا وضاعت مصر ! ! . . إنها كارثة الكوارث ، وفادحة الفوادح ! . هذا شاور المجوسى ، أرسل بعض جنوده ينادون بالفسطاط : بأن يرحل عنها جميع سكانها ، وألا يقيم فيها رجل ولا امرأة ولا طفل لأنه عزم على إحراق المدينة . وقد أرسل إليها بالأمس عشرين ألف قارورة من النِفط ، وعشرة آلاف من مشاعل النار ، لتنثر فى جميع أرجائها . وقد رأيت وأنا قادم إليكم ما يفتّت الأكباد : رأيت سكان الفُسطاط وقد هرعوا إلى القاهرة ،

بنسائهم وأطفالهم ومرضاهم ، معولين صائحين ، كأنهم فى يوم الحشر الأكبر ، بعد أن تركوا دورهم ، ومتاجرهم ، وأمتعتهم ، وذخائرهم ليحرقها شاور الطاغية بالنار. ياللمصيبة ياللمصيبة ! ! ماذا جرى على مصر ؟ ؟ وهل كان ذلك مكتوباً لها فى لوح القدر ؟ ! وإذا احترقت الفُسطاط ، واستشرت النار ، وسرت إلى القاهرة فالتهمتها فى طرفة عين ، أتجلسون هنا صامتين حتى تأخذكم الصيحة ؟ ! أليس فى مصر رجال ؟ ! أليس فيها عقول ؟ . أليس فيها من يرى رأياً فى هذه الداهية الدهياء ؟ ! . ليس لنا ملجأ إلا القصر ، وإلا الخليفة ، وإلا سيدة القصور . فإذا خابت آمالنا فى هؤلاء ، ذهبنا إلى دورنا ، وأغلقنا أبوابها لنكون حطباً للنيران .

فدهش القوم للخبر المفجع . وكاد يعصف الحزن بقلوبهم . وصاح داعى الدعاة : هلمّ إلى القصر . دخلوا القصر فى صمت وذهول ، فرأوا ظلاماً مخيماً ، ورأوا الأستاذين ذاهلين واجمين ، يذهبون ويجيئون فى اضطراب وحيرة . فتوجهوا إلى غرفة سيدة القصور ، فرأوها جالسة وعلى وجهها آثار الغم المكبوت ، فأحسنت استقبالهم ، ونقلوا إليها ما عندهم من أخبار السوء ،

فابتسمت ابتسامة اليائس وقالت : علمت كل هذا فى الصباح فلم أغادر غرفتى ، وبقيت كل هذه المدة أفكر فيما يجب أن يعمل . وقد وصلت فى النهاية إلى رأى قد يكون فيه استجارة من الرمضاء بالنار ، واستشفاء من الداء بالداء . ولكن تنوع البلاء خير من استمراره ، والمصيبة المشكوك فيها خير من المصيبة المحققة . فقال عمارة : على أىّ شىء عولت يا مولاتى ؟ ؟

— عوّلت على الاستنجاد بنور الدين بن زنكى. فقال داعى الدعاة: هو خير من شاور ، ومن الإفرنج على أى حال . فقال عمارة : هل نضمن بقاء المذهب الفاطمى إذا دخل مصر هذا السُّنىُّ المتعصِّب ؟ ؟ فقال داعى الدعاة : إنه سيأتى إلى مصر ليحارب الإفرنج لا ليفتح مصر . وقالت سيدة القصور : أرجو . ومهما يكن من شىء فبعض الشر أهون من بعض . . أتوافقون على الاستنصار بنور الدين .

— نوافق . . .

دعت سيدة القصور خادمتها « تغريد » وأمرتها بإحضار مقصّ ، فلما أحضرته قصّت شعرها ، وأمرت أن تُقصّ شعور جميع نساء القصر من شريفات وجوار ، وأن ترسل هذه الشعور

مع رسالة استغاثة واستصراخ لنور الدين . فكتب عمارة رسالة موجزة مبكية قويّة التأثير ، على لسان سيدة القصور ، يستثير فيها شهامة نور الدين ورجولته وإسلامه ، ويدعوه إلى إنقاذ مصر وإنقاذ المسلمين. ثم سلّمت سيدة القصور الشعور والرسالة إلى أحد رجال البريد ، ليستبق الريح فى الوصول إلى نور الدين.

ووقفت سيدة القصور أمام نافذتها تنظر إلى النيران مصعوقة باكية وهى تصعّد زفرات الغيظ ، والحقد ، والألم . . . وتقول :

أيتها النيران ماذا تأكلين ؟ ! إنك تأكلين فؤادى وتتأججين فى صدرى ! ! أى مسجد تهدمين محرابه وتحطمين جدرانه ؟ ! وأيّة دار كان يضيئها الأنس ويشع فى أنحائها السرور ، أصبحت بك اليوم ركاما ؟ ! ويحى لما أصاب قومى وأهلى ! ! كانوا بالأمس فى منازل تسامق السماء وتتحدّى الجوزاء ، فأصبحوا الليلة ولا مأوى لهم ولا وَزَرَ . ليت شعرى أين الليلة بناتهم المحجّبات ، وعجائزهم الضعيفات ؟ ؟ وأين ما كان لهم من سعادة وعزّ ونعيم ؟ أيتها النيران . التهمينى قبل أن تلتهمى رعيتى ، وخذينى قبل أن تأخذى ملكى ! ! أنا فداء لمصر ، وفداء لأهلها البررة الأطهار . . . ما أشدك أيتها النيران وما أقساك ! ! كأنك

من حقد شاور اشتعلت ، ومن لؤمه تأججت . . . أما تكفى لإطفائك دموعى وهن غِزار؟ ! لا . . .لا . . . لن أيأس فى حياتى . . . إن آمالى وآمال مصر تلتهب فيك ، وهى ذهب نضار . وستزيدها النار صفاء وخلوصاً من الأوضار ! !

١٤

طار البريد إلى نور الدين فحزن على مصر وبكى على أهلها وأرسل جيشاً لجِباً يقوده أسد الدين شيركوه، وصلاح الدين . وما كادا يلتقيان بجيش الإفرنج ، حتى تراجع عن مصر عائداً أدراجه إلى الشام ، ودخل أسد الدين القاهرة ، فلاقته لقاء الفاتح المنقذ ، وتنفس أهلها الصُّعداء .

ودخل الجيش القاهرة وفى أخرياته شيخ يتوكأ على عكازه هو أبو كاظم الحرانى أو زين الدين بن نجا ، فإنه بعد أن خابت آماله فى الإيقاع بعمارة ، وكشفت المؤامرة التى دبرها لفتك سيدة القصور به التجأ إلى نور الدين بدمشق وأظهر النسك

والعبادة ، فعينه نور الدين واعظاً بجنده . وأصبح من المقربين في دولته ، فلمّا عزم الجيش على السفر إلى مصر ، تحرّك فيه ذنابى الشر وثارت فيه غريزة الأخذ بالثأر والانتقام من عمارة ، وجال بخاطره أنه إذا لم يظفر به مرّة فسوف يظفر به أخرى ، لذلك استأذن نور الدين فى أن يلحق بجيش مصر ، فأذن له .

وبعد يوم استدعى الخليفة العاضد أسد الدين إلى القصر ، وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقّبه بالمنصور . فغضب شاور لعزله من الوزارة ، والتقى بابنه شجاع وقال : ألا ترى كيف فعل الغزّ المغتصبون ... جاءوا لينقذوا البلاد من الإفرنج فاستولوا عليها ؟!

— يا أبى : من الخير لنا أن نتوارى فى دورنا ، وألاّ ترى الناس وجوهنا . فإن القاهريين لو تصدقوا علينا بدمائنا لكانوا أكرم الناس .

— أكرم الناس !! هؤلاء البُلْه المفاليك الذين يصفّقون لكل غالب ! ! . . إننى عزمت على مكاتبة جميع ملوك الساحل من الإفرنج ، ليهجموا على مصر من طريقين : طريق بلبيس ، وطريق دمياط .

فلمع الغضب فى عينى شجاع وقال : والله لئن لم تنته عن

هذه الأمور ، لأكشفنّ الأمر لأسد الدين .

— كفكف من غربك يا شجاع . إنّى إن لم أفعل هذا قتلنا الغزّ عن آخرنا .

— وإذا جاء الإفرنج قتلونا أيضاً . ولأن نقتل والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل والبلاد بيد الإفرنج .

ثم دارت الأيام ، ولم يستطع صلاح الدين صبراً على بقاء شاور حيًّا ، يحوك الدسائس ويبث الفتن ، فقتله بيده . وبعد قليل مات أسد الدين ، فولّى الخليفة صلاح الدين الوزارة ، ولقّبه بالملك الناصر .

تولّى صلاح الدين الوزارة وهو شديد الحذر من سيدة القصور لا يؤمن ببشاشتها ، ولا بحسن لقائها ، وكأنه رأى بعين بصيرته ما ينطوى عليه قلبها له : من الحقد ، والضغينة ، والكيد . فهم لُعبتها فعزم على تفاديها بلعبات أخرى : علم أنها لم تؤثره بالوزارة مع وجود كبار الرؤساء والقوّاد بالجيش الشامىّ ، إلا لتوقع الخلاف والفرقة بينه وبين هؤلاء القوّاد ، حتّى يصبح بأسهم بينهم شديداً وحينئذ تتحكم سيدة القصور فى الموقف ، وترضى عمّن ترضى عنه منهم ، فيكون صنيعة نعمتها ، ومنفّذ أمرها . علم صلاح

الدين هذا فتملق القوّاد، وأغدق عليهم واسترضاهم ، وجعل نفسه أداة منفّذة لإرادتهم . ثم اتجه إلى القصر ، فأخذ يجرّده من كل قوة فيه تستطيع أن تقاومه ، أو تقف فى وجه غايته : فأبعد كثيراً من رجاله ، وأخذ يرهق سيدة القصور بطلب الأموال حتى كاد يستنفذ ما عندها ، ثم رتّب بهاء الدين قراقوش — وهو من أشد رجاله عنفاً وأكثرهم له إخلاصاً — حارساً على القصر ، حتى لا يدخل إليه شيء ، أو يخرج منه شيء إلا بإذنه .

ضاقت سيدة القصور بهذه الحال ، وسدت أمامها سبل الحيلة ، ورأت أن ملكها ومذهبها الفاطمىّ يترنّحان تحت ضربات قاسية متتابعة ، وأنه من العار عليها أن تقف صامتة مغلولة اليدين ، والأعداء يقتلون دولتها بسمّ بطيء . فطلبت أن يُدعى إليها عمارة، فلما حضر قالت : أرأيت أبا محمد ما فعله بنا ذلك الكردى الوضيع ؟ ! كأن وحياً يهبط عليه بما فى نفسى ، فكلما فكرت له فى مكيدة رأيته قد أعدّ لها ما يحبطها ! !

— هذا الرجل كارثة على مصر وعلى الفاطمية ، وقد حاولت أن أجتذبه بشعرى، وأختدعه بمديحى، فلم أجد منه إلا جفاءً وإغفالاً . ومن مصيبة مصر أن يكون عبد الرحيم البَيْسانىّ

ـــ الذى يسمونه بالقاضى الفاضل ـــ وزيراً لهذا الرجل الجامح ، وهو لا يشير عليه إلا بكل ما يهدم الدولة الفاطمية ويعصف بها .

ولما ضاقت حيلتى مع هذا الكردىّ أرسلت إليه بهذه القصيدة :

أيا أذُنَ الأيام إن قلتُ فاسمعى ... لنفثة مصدور وأنّة موجَع
نزلتُ بمصر أطلب الجاه والغنى ... فنلتهما فى ظلّ عيش مُمتّع
وفزت بألف من عطية فائز ... مواهبه للصّنع لا للتصنّع
وكم طرقتنى من يد عاضديّة ... سرت بين يقظى من عيون وهجّع
فقل لصلاح الدين ــ والعدل شأنه ... مَن الحكَم المصغى إلى فأدّعى ؟
أقمت بكم ضيفاً ثلاثة أشهر ... أقول لصدرى كلما ضاق : وسّع
أمن حسنات الدهر أم سيئاته ... رضاك عن الدنيا بما فعلت معى ؟
ملكتَ عنان النصر ثم خذلتنى ... وحالى بمرأى من علاك ومَسمَع

فلم أتلق منه إلى هذه الساعة جواباً ، وقابلنى البيسانى فهزّ رأسه فى خبث وقال : لم أر أعجب من قصيدتك للناصر ، لقد غلّبت فيها مدحك للفاطميين على مدحه .

ـــ استمرّ فى هذه الطريقة أبا محمّد ، ولا تيأس من اجتذاب هذا المهر الشموس ، فإنما أعددتك يا حبيبى لمثل هذه

الكوارث . . . لقد سمعت أن باسمة اتّصلت بحاشية صلاح الدين وأنّ هذه الخائنة تخبره بأسرارنا ، وبما تعرف من مخابئ القصر وذخائره .

— نعم قابلني ابن دخان منذ يومين ، وفى عينيه نظرات الشامت ، وعلمت منه أن زوجه لا تقيم عنده إلاّ قليلاً ، وأنها دائبة العمل مع رجال صلاح الدين .

— ويل لها منّى ! ! اسمع يا عمارة . . . لم يبق فى كنانتى إلاّ سهم واحد للخلاص من صلاح الدين .

— ما هو ؟ ؟

— ستعرفه الآن . . . يا «تغريد» . . . مُرِى مؤتمن الخلافة أن يقابلنى .

فيقبل مؤتمن الخلافة حزيناً ، فتقول له سيدة القصور :

— كم عندك من الجنود السُّودانية ؟

— عشرون ألفاً يا سيدتى أو يزيدون .

— هل تستطيع أن تهجم بهم مفاجأة على جنود الغزّ ، وتطهر البلاد منهم ؟ ؟

— ذلك ممكن يامولاتى إذا استمرّ الخلاف الذى أراه بين قوّادهم .

ـ أعِدّ العدّة، واهجم عليه متى شئت وأين شئت . والله معنا . فقال عمارة :

ـ إذا هزمنا هذه المرّة يا مولاتى: ذهب منّا كل شيء ! !

ـ ليكن ما يكون، فإن آخر الدواء الكيّ. خلّيانى وحدى.

انفضّ المجلس وخرج عمارة من القصر، وبينما هو فى الطريق قابله المهذّب الأسوانى ومعه شيخ غريب عليه سيما الصلاح والزهد لا يفتأ لسانه متمتماً بالتسبيح والأدعية . فسأله عمارة عنه، فقال إنه زين الدين بن نجا ، وهو رجل تقىّ يعظ جنود الغزّ . ثم مال على أذن عمارة وهمس: ويبغضهم أشد البغض. فحيّاه عمارة ودعاهما إلى داره، ورأى من حديث زين الدين وسوء عقيدته فى الغزّ، ما حبّبه إلى نفسه: وقرّبه إلى قلبه. ووثّق عرا الصداقة بينهما ، وبعد أيام ثار السّود على الغزّ، واشتدّ القتال بينهم ، وطال أمد المعركة، وكادت صفحة التاريخ تتغيّر لولا أن تآلف قوّاد صلاح الدين، وصدقوا فى الحملة . ولولا أن وثب صلاح الدين وأخوه توران شاه على القصر . وقبضا على مؤتمن الخلافة وقتلاه، فسقط فى أيدى السّودان وانطفأت حميتهم.

بعد ذلك زاد تمكن صلاح الدين فى مصر . وتحكّمه فى

الخليفة ، فأغار على ذخائر القصر وكنوزه ولها من القيمة فوق ما يقدّره الخيال ، واستولى على قصوره الخلافة ، وأخرج أبناء الخلفاء وبناتهم منها ، وأسكن كل فريق فى دار على حدة تحت حراسة قراقوش ، وتصرّف فى العبيد والخدم ، ومنع الخليفة من مغادرة القصر ، ووهب إقطاعات المصريين إلى أصحابه وجنوده ، وعزل قضاة الشيعة واستناب قضاة الشافعية ، وأزال شعار الدولة الفاطمية ، وأبطل من الأذان « حيّ على خير العمل » ومنع أن يدعى للعاضد على المنابر .

قذف صلاح الدين بهذه السهام دفعة واحدة ، فصعقت سيدة القصور لهول هذه المصائب المتتالية ، ورأت ملكها ومذهبها يذهبان طُعمة للقوة والدهاء ، فبكت كما تبكى النساء وعادت إليها غرائز الضعف والأنوثة . أما العاضد فقد دهمه الغم وأحرقته الحمّى ، فألح فى أن يراه طبيبه عبد الله بن السّديد ، ولكنّ الطبيب أبى أن يذهب إليه ، فمات حزيناً بائساً منبوذاً .

سرى خبر موته فى القاهرة ، فشاع الحزن عليه فى كل مكان وزاد فى بكاء القاهريين عليه ما أصاب الخلافة من نكبات ، بعد أن عاشوا فى ظل جناحها فى أمن ، ودعة ، ومواسم ،

وأعياد ، كانت بهجة الدنيا وزينة الدهور . ومرّ عمارة على القصر فإذا هو طلل دارس ، بعد مجد طاول الفرقدين ، وعز ملأ الخافقين . فقال :

لى بالديار غداة البين وقفات أبكى رسوماً خلت منهن سادات
يارب إن كان لى فى وصلهم طمع عجّل علىّ فللتأخير آفات

فاجتمع حوله الناس فبكى وبكوا ، وثارت ثائرته فأنشد :

أيها الناس والخطاب إلى مَنْ هو من حيث عقلُه إنسانُ
هذه خُطبة إلى غير شخص نظمت عقد نثرِها الأوزان
لم أخصِّص بها فلاناً لأنى فى زمان ما فى بنيه فلان
ذمُّنا للزمان ذمٌّ لمن فيـ ـه وحقٌّ ألاّ يذمّ الزمان

ونظر من خلال دموعه ، فرأى زين الدين بن نجا يبكى وينتحب ، ورأى « باسمة » تبتسم فى جذل وخبث ، فجذبها من عضدها وقال : تعالىْ واسمعى يا فتاة ، فإن عمارة اليمنى لا يخاف الجواسيس ، بلّغى سيدك صلاح الدين ما تسمعين :

قلبُ الزمانِ على الخلافة قاسى ما للزمان جرى بغير قياسِ !!
أسفى لمُلك عاضدىّ عُطِّلتْ حجراته بعد النّدى والباسِ
أخذتْ بنانُ الغزّ من أمواله ورجاله بمخانقِ الأنفاس

أبَنِي عليّ والبتولِ وأحمدٍ   وكواكبَ الدنيا وخيرِ الناسِ :
هذى حصونُ الروم عُطِّل غزوها   وغزت ديارَكمُ بنو العباس

واشتدَّ بكاء الناس وعويلهم، وكادت تكون فتنة ، لولا أن جاء داعى الدّعاة ، فجذب عمارة من يمينه وانطلق به .

١٥

أسرعت باسمة إلى قصر الأيُّوبيين ، وكان قد سبقها إليه زين الدين بن نجا، ولمّا قابلت صلاح الدين ، والقاضى الفاضل، نقلت إليهما ما كان من جُرأة عمارة ، وما كان من بكائه الفاطميين واستثارة قلوب الناس على من هدم ملكهم ، والتلويح أو التصريح بذمّ صلاح الدين . ثم أنشدته ما حفظت من أبيات عمارة ، وأخرج زين الدين من جيبه ورقة وقال : وهذه قصيدة طويلة لعمارة يتناقلها الناس ويستنسخونها . وشرع يقرأ منها :

رميتَ يادهر كفَّ المجد بالشلل   وجيدَه بعد حسن الحَلْي بالعَطَلِ

لهفى ولهفَ بنى الآمال قاطبةً على فجيعتها فى أكرم الدُّوَل
باللهِ زُرْ ساحة القصرين وابكِ معى عليهما لا على «صفين» و«الجمل»
وقل لأهلهما : والله ما التحمَتْ فيكم جراحى ولا قرحى بمندمل
ماذا تُرى كانت الإفرنج فاعلةً فى نسل آل أمير المؤمنين علَى؟

فغضب صلاح الدين ، والتفت إلى القاضى الفاضل وقال : ماذا نعمل فى هذا الرجل الذى يسبنا جهراً ؟ !

ــ إنه يامولاى شاعر ثائر ، وقد أكثر من مدح آل أيوب فأهملتموه ، ولو أن مولاى قتله لهذا الشعر لأغضب العامة ، وما زالت الأشراف تهجي وتمدح . وأرى أن ثورة عمارة لن تصل به إلى سلامة ؛ فاصبر عليه حتى يرتكب من الذنوب ما يسوّغ قتله . فقال زين الدين : إن له شعراً صريحاً فى الخروج على الدين وعلى مذهب أهل السنة ، ألا يكفى هذا لقتله ؟ ! فقال القاضى الفاضل : دعه يا ابن نجا فإن من مزايا الشاعر أن يغتفر له ما لا يغتفر لغيره .

مرّت أيام وشهور وثورة عمارة لا تنطفىء ، وعزمه على محاربة الدولة الصلاحية لا يكلّ . فكوّن جماعة سرية ، واستغل سخط بعض قواد صلاح الدين عليه فضمهم إلى جماعته ، ومنهم خاله ،

وكان بين أفراد الجماعة: داعى الدعاة عبدالجبار بن عبد القوى، وقاضى القضاة، وعبد الصمد الكاتب، ونصر الله بن كامل، وزين الدين بن نجا الواعظ، الذى كان عبقرياً فى الجاسوسية نابغة فى النفاق. وكانت هذه الجماعة تجتمع فى داره لأنه كان من المقبولين فى دولة صلاح الدين، لا تحوم عليه أية شبهة.

وفى ليلة بينما كان هؤلاء مجتمعين، إذا طرقٌ خفيف على باب الدار، فذعروا جميعاً وظنوا أنهم أحيط بهم، وفتح أحدهم الباب، فرأى امرأة زريّة الهيئة فى أثواب الخدم، وما إن اجتازت الدهليز وكشفت عن وجهها، حتى عرف القوم فيها سيدة القصور. فظهر عليهم الدهش فابتسمت وقالت: لقد استطعت أن أفرّ من أسر قراقوش السمج بهذه الحيلة، وكان أقصى ما أريد أن أشهد اجتماعكم، فلعل أن يكون لى رأى فيه. فحيّاها القوم تحية الإجلال، ثم أخذوا فى الحديث والمناقشة.

وطال الكلام واشتدّ الجدل، وانتهى الأمر إلى أن تكون المؤامرة ذات شعبتين: الأولى: أن تكتب رسالة إلى سنان ابن سليمان صاحب الحشيشة بالشام، ورئيس الإسماعيلية، يوصف بها ما حلّ بالدولة الفاطمية، ويبيَّن فيها ما بين المذهب

الإسماعيلى والمذهب الفاطمى من الصلة والقرابة ، وأنّ نصر الفاطمية إنما هو نصر للاسماعيلية ، ثم يُلَحّ عليه فى ندب أحد الفدائيين من الاسماعيلية لقتل صلاح الدين . الثانية : أن تكتب رسائل إلى قواد الإفرنج بالشام وصقلية ، يُدعَوْن فيها إلى القاهرة للاستعانة بهم على صلاح الدين ، فإذا جاءوا وخرج صلاح الدين لقتالهم ، أقام المصريون بالقاهرة ثورة ، فتقسمت قوة صلاح الدين بين الإفرنج والثوّار ، والخارجين عليه من جنده وقوّاده .

ولهم القوم بكتابة الرسائل ، قال زين الدين : من الخير أن نرجىء الكتابة حتى نروّى فيها ، وحتى تكون قوية مؤثّرة .

بعد ذلك قامت سيدة القصور ، وكانت الشمس قد علت فى الأفق ، فالتفت بثيابها المستعارة وقالت : الآن أعود إلى محبِسى الذى سأخرج منه إلى قبرى ، أو إلى قصرى ! !

ذهب الحرّانى إلى داره فأقام بها نهاره ، حتى إذا أظلم الليل ، قام ولبس ثيابه ، وخرج متّجهاً إل دار القاضى الفاضل . وكان يتمتم وهو يتعثّر فى الظلام قائلاً : اليوم أشفى غيظ نفسى منك يا ابن زيدان . . . اليوم أنتقم لابنى وأبى اللذين قتلهما عمك

ظلماً وعسفاً ... لقد كتمت هذا الغِلّ في صدري عشرين عاماً، فاليوم يجد صدري متنفساً ... لقد كنت أنتهز كل فرصة فتطير من يدي ، أما اليوم فلن تطير أبداً ! !

ولما بلغ الدار ، قابل القاضي الفاضل ، وقصّ عليه خبر المؤامرة وأسماء المتآمرين . فأخذه القاضي من يده وذهبا إلى قصر صلاح الدين ، فلما سمع الخبر الخطير ، أمر كبير حرّاسه أن يرسل جماعة للقبض على كل متآمر أينما كان. ولم تتمّ ساعتان حتّى قُبِض عليهم، وأودِعوا خزانة البنود، وكانت سجن الفاطميين .

دخل عمارة السجن مستريح النفس ثابت القلب ، يخالجه شعور بالطمأنينة ، وإحساس بأنه أدّى واجب الوفاء كاملاً للفاطميين ولسيدة القصور .

ونام ليلته هادئ البال ، حتّى إذا تنفس الصبح ، دخل عليه الحراني وجماعة من الجنود . فلما رآه عمارة قال له : أهكذا تُشترى الدنيا وتباع الآخرة بالنفاق والختل يا زين الدين ؟

— لست زين الدين ... أنا أبو كاظم الحراني الذي باع حياته للشيطان لينتقم منك ومن عمّك ... اليوم يزول همّي ، وتطمئن نفسي ، حين أراك مصلوباً بين القصرين .

فصاح عمارة : إخسأ أيها الكلب النابح ! وسلّم نفسه إلى الجند وأمرهم أن يمروا به على دار القاضى الفاضل ، فلما رآه القاضى مقبلا دخل وأغلق بابه . فضحك عمارة ساخراً وقال :

عبد الرحيم قد احتجب   إن الخلاص من العجب

ثم أخذ إلى مجلس القضاء، فاعترف غير هيّاب بكل ما صدر منه، فحُكم عليه بالصلب هو وأصحابه . وبينما كان عمارة على خشبة الموت، مرّت جنازة يمشى خلفها فقراء القاهرة وعامتهم باكين معولين ، فسأل الجند عن صاحب الجنازة فقيل : هذه سيدة القصور .. . سُدّت أمامها منافذ الأمل ، وتجهّم لها وجه الزمان، فتجرّعت سمّاً زعافاً ماتت به لساعتها .

فصاح عمارة بالجند : عجّلوا بى ! ! . . . عجلوا بى ! ! . فسيقول الناس غداً : إن اليوم الثانى عشر من رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة كان يوم الشهداء ، ماتت فيه شهيدة العزّة والإباء ، ومات فيه شهيد الكرامة والوفاء ! ! . . . ثم صاح :

نحن فى غَفْلةٍ ونوم وللموْ   ت عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ

قد فزِعنا من الحِمامِ سنيناً   واسترحنا لمّا أتانا الحِمامُ

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر

٥ قروش ج . ع . م .	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً